

الأزهر الشريف
مجمع البحوث الإسلامية
سلسلة مجمع البحوث الإسلامية
السنة التاسعة والأربعون ١٤٣٩هـ/٢٠١٨م

هذا هو الإسلام

بقلم
مجموعة من العلماء

إشراف
أ.د / محيي الدين عفيفي أحمد
الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

مجموعة من علماء الأزهر الشريف
هذا هو الإسلام
الأزهر الشريف - مجمع البحوث الإسلامية
١- الإسلام دين العقل والعلم.
٢- الدين للحياة.
٣-ماذا يعني الإسلام.
٢١٠ ص ، ٢٠ سم
العنوان: مجمع البحوث الإسلامية - القاهرة

رقم الإيداع: ٢٠١٨/١٦٣٠م

الترقيم الدولي: 978-977-205-266-0

بسم الله الرحمن الرحيم

تصدير

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن دعا بدعائه واهتدى بهداه .. أما بعد،،،

فلقد كان الأزهر الشريف على مر تاريخه ـ ولا يزال ـ الحارس الأمين على الإسلام؛ عقيدةً وشريعةً وأخلاقًا، يؤدي رسالته، ويتحمل مسئوليته في المحافظة على الدين وتراثه وعلومه الشرعية والعربية وغيرها، حتى صار كعبة العلوم الدينية والعربية والثقافية في مصر والعالم، ومركز إشعاع روحي وديني وثقافي، ينشر مباديء وأخلاق الإسلام، ويوضح المنهج النبوي في مواقف الحياة المتنوعة بعيدًا عن التعصب الأعمى، أو الاضطهاد الفكري أو المادي، مراعيًا لظروف الناس وحاجاتهم، وكتب الله له القبول فتهيأت له النفوس على مدار عقود وقرون طويلة، فأصبح الجامعة الإسلامية الكبرى الفريدة في العالم بتاريخها وأهدافها ورسالتها ومنهجها ووسطيتها.

إن الأزهر الشريف يضطلع بمسئولياته ويواصل مسيرته العلمية في بيان حقائق الإسلام بمنهج وسطي معتدل يحترم التعددية الدينية والمذهبية والفكرية، ويعمل على تصحيح المفاهيم المغلوطة، لأجل حماية العقول من الغلو والتطرف والتسيب.

وانطلاقًا من هذه المسئولية كان الدور العظيم لفضيلة الإمام الأكبر شيخ الأزهر الأستاذ الدكتور/ أحمد الطيب في النهوض بالتبعات الملقاة على عاتق الأزهر الشريف في الداخل والخارج، ببيان حقائق الإسلام ومواجهة التطرف والإرهاب، وأهمية المجابهة الفكرية وبيان جهود الأزهر الشريف وجميع هيئاته حيث أكدّ فضيلته: أن الأزهر الشريف قد عاش أكثر من ألف عام ـ وسيظل ـ يُدرِّس المذاهب الفقهية، والمسائل الكلامية على افتراقها، والعلوم الإسلامية بمختلف أذواقها ومشاربها، لكن الأزهر قد وجد ضالته ـ منذ القدم ـ في مذهب أهل السنة والجماعة، واتخذه طوق نجاة للمسلمين كلما عضّتهم نوائب التشرذم وآفات التعصب المقيت لمذهب يراه أصحابه: هو الإسلام الذي لا إسلام غيره .. وسبيل الأزهر اليوم هو سبيله بالأمس: السعي الحثيث لجمع كلمة المسلمين، ووقوفهم صفًا واحدًا في مهب العواصف والتيارات.

إن الأزهر الشريف الذي يرفع راية «جمع الكلمة» بين المسلمين، لا يتردد في مقاومة موجات الإلحاد، والتغريب، والإفساد الأخلاقي، ولا يدخر جهدًا في مقاومة الانحراف التكفيري الطارئ، والمرفوض من جماهير الأمة الإسلامية قديمًا وحديثًا، وليس أمامه ـ من أجل تحقيق هذا الهدف ـ إلا مواصلة السعي ـ بصدق ـ لجمع علماء المسلمين على كلمة واحدة، لمواجهة الأخطار التي تهدد الجميع، ولتحقيق مصالح الأمة، ودرء المفاسد عنها، ومن دون هذا الالتقاء،

فإن النتائج لن تكون على النحو الذي نرجوه لأمتنا، وتقتضيه مصلحتها في هذه الظروف التي يمر بها العالم الآن[1].

هذا، وتتعاظم آمال وطموحات الناس حول الأزهر الشريف يومًا بعد يوم، وتتعالى صيحات النداء والفزع إليه ـ بعد الله تعالى – باعتباره الملاذ الآمن للمسلمين في العالم من الانحراف الفكري، والتطرف والإرهاب ، وقد عمل الأزهر الشريف على تلبية هذه النداءات وتحقيق الطموحات، وذلك بكل هيئاته ودواوينه ودوائره العلمية والمعرفية، ومنها: مجمع البحوث الإسلامية، الذي أسهم بجهود عظيمة في العطاء العلمي للأزهر الشريف من خلال دراسة القضايا العلمية المختلفة، إيمانًا منه بدوره العلمي في تصحيح المفاهيم الخاطئة، وبيان وسطية وسماحة الإسلام، وأهمية التيسير ورفع الحرج عن الناس.

إن ما قدمه مجمع البحوث الإسلامية ويقدمه في هذا الصدد ليؤكد جهوده الدؤبة في خدمة الحياة العلمية والعملية للمسلمين؛ في التنظيم، والتشريع، والثقافة، والحضارة، والاجتماع، والسلوك، والأحوال الشخصية، والمعاملات، وما إلى ذلك مما يدخل في صميم الحياة ومتطلباتها.

---

(١) كلمة الإمام الأكبر شيخ الأزهر أ.د/ أحمد محمد الطيب، في افتتاح مؤتمر خطورة الفكر التكفيري والفتوى بدون علم، ١٤٣٥هـ ـ ٢٠١٤م ـ المجلس الأعلى للشئون الإسلامية.

إن مجمع البحوث الإسلامية وهو يؤدي دوره باعتباره هيئة علمية وبحثية وثقافية ومعرفية بالأزهر الشريف، لا ينفصم عن واقع الناس والمشكلات والتحديات التي تحيط بهم، وظهور أنماط من السلوك وألوان من المعاملات تتطلب ضرورة بيان الرأي والشرعي والديني لها؛ حتى لا ينخدع الناس بالسيىء منها، أو ينساقوا وراء الفكر المنحرف والفتاوى الشاذة التي تعاني منها مجتمعاتنا في ظل انتشار التطرف والإرهاب.

ومن المؤلم غاية الألم أن ترتكب جرائم باسم الإسلام وباسم شريعته السمحاء، وتُنفذ العمليات المدمرة مع صيحات التهليل والتكبير، ودعوى الجهاد والاستشهاد في سبيل الله، الأمر الذي استغله الإعلام الغربي أسوأ استغلال في تشويه صورة الإسلام، وتقديمه للعالم بحسبانه دينًا همجيًا متعطشًا لسفك الدماء وقتل الأبرياء، وأنه يحرض أبنائه وأتباعه على العنف والكراهية والأحقاد، وللأزهر موقف واضح في هذه القضايا قام بإعلانه وبيانه كأشد ما يكون البيان وضوحًا وجلاءً.

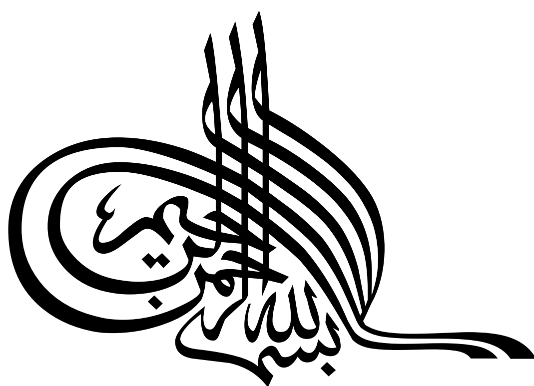
وانطلاقًا من دور المجمع ومسئولياته العلمية؛ فقد قام بإعادة طبع مجموعة من الكتب العلمية والمقالات النافعة، والتي تتنوع موضوعاتها، وتلبي عددًا من احتياجات المرحلة الراهنة، حيث تشتمل هذه الكتب على قضايا ومسائل تتصل بالعقيدة، والشريعة، والأخلاق، والتفسير، وعلوم السنة النبوية، والثقافة الإسلامية في مجالاتها المختلفة؛ ليكون

الناس على بينة من أمرهم فيما يتعلق بالأمور الدينية والاجتماعية والأخلاقية، خاصة في ظل تراجع منظومة القيم الأخلاقية، وانتشار موجات التطرف والإرهاب والتكفير والإلحاد والتسيب والإنحلال، مما يستلزم معالجة هذه المسائل من خلال الفكر الوسطي الذي يعمل الأزهر الشريف على ترسيخه.

نسأل الله تعالى القبول، وأن يكون العمل خالصًا لوجهه تعالى، إنه نعم المولى ونعم النصير.

الأمين العام لمجمع البحوث الإسلامية

أ.د/ محيي الدين عفيفي أحمد


بسم الله الرحمن الرحيم

الإسلام دين العقل والعلم

للإمام الأكبر الشيخ/ محمود شلتوت (*)

شيخ الأزهر الأسبق

لقد كان موقف القرآن في الحث على التفكير في ملكوت السموات والأرض برهانًا واضحًا على مكانة العقل والعلم في نظر الإسلام؛ إذ العقل آلة التفكير، والعلم ثمرته. وإذن يكون كل ما ورد في القرآن حثًّا على التفكير هو إعلانًا عن فضل العقل، وإيحاءً بالعمل على تربيته وتقويته، وهو في الوقت نفسه إعلان وتسجيل لفضل العلم، وإيحاء بتحصيله، فيقف الإنسان على الحقائق، وتزول عنه غشاوة الجهل، ويُحرر من رِقِّ الأوهام والخرافات.

وبذلك كان الإسلام دينَ الفكر، ودين العقل، ودين العلم، وحسبنا أن رسوله لم يقدم حجة على رسالته إلا ما كان طريقها العقل والنظر والتفكير، ولم يشأ له ربُّه أن يحقق للقوم ما كانوا يطلبون من خوارقَ حسية تخضع لها أعناقهم، ﴿وَقَالُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَٰتٞ مِّن رَّبِّهِۦۖ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡأٓيَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٌ ۝٥٠ أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحۡمَةٗ وَذِكۡرَىٰ لِقَوۡمٖ يُؤۡمِنُونَ﴾ [العنكبوت: ٥٠-٥١].

(*) مجلة الأزهر، عدد شهر جمادى الآخرة ١٤٣٥هـ/ إبريل ٢٠١٤م، الجزء (٦).

وقد ارتفع القرآن بالعقل، وسَجَّل أن إهماله في الدنيا سيكون سببًا في عذاب الآخرة، فقال حكاية لما يجرى على ألْسنة الذين ضلوا ولم يستعملوا عقولهم في معرفة الحق والعمل به: ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [الملك: ١٠].

وكذلك ارتفع بالعلم وجعل أهله في المرتبة الثالثة بعد الله والملائكة، ﴿شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَأُوْلُواْ ٱلۡعِلۡمِ قَآئِمَۢا بِٱلۡقِسۡطِۚ﴾ [آل عمران: ١٨].

ثم جعلهم وَحْدَهم هم الذين يخشون الله من عباده بما أدركوا من آثار قدرته وعظمته، فقال بعد أن لفت الأنظار إلى نِعم الله وآياته: ﴿إِنَّمَا يَخۡشَى ٱللَّهَ مِنۡ عِبَادِهِ ٱلۡعُلَمَٰٓؤُاْۗ﴾ [فاطر: ٢٨].

وكان من مقتضيات أن الإسلام دين العقل ودين العلم، أنه حذر اتباع الظن، وجعل البرهان والحجة أساس الإيمان، ﴿قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ﴾ [الأنعام: ١٤٨]، ﴿وَمَا يَتَّبِعُ أَكۡثَرُهُمۡ إِلَّا ظَنًّاۚ إِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـًٔاۚ﴾ [يونس: ٣٦]، ﴿وَمَا لَهُم بِهِۦ مِنۡ عِلۡمٍۖ إِن يَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّۖ وَإِنَّ ٱلظَّنَّ لَا يُغۡنِي مِنَ ٱلۡحَقِّ شَيۡـٔٗا﴾ [النجم: ٢٨]، ﴿وَلَا تَقۡفُ مَا لَيۡسَ لَكَ بِهِۦ عِلۡمٌۚ إِنَّ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡبَصَرَ وَٱلۡفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنۡهُ مَسۡـُٔولٗا﴾ [الإسراء: ٣٦].

وقد رفع من شأنه فعبر عنه بالسلطان فقال: ﴿ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡۖ كَبُرَ مَقۡتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْۚ ﴾[غافر:٣٥]، ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ سُلۡطَٰنٍ أَتَىٰهُمۡ إِن فِي صُدُورِهِمۡ إِلَّا كِبۡرٞ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِۚ ﴾ [غافر:٥٦]. وهكذا كان العقل، وكان العلم والبرهان في نظر القرآن.

القرآن يَنْعَى على التقليد والمقلدين:

ومن هنا كثرت آيات القرآن الواردة في ذم التقليد وجَرْي الخلف وراء السلف، دون نظر واستدلال، هؤلاء الذين ورِثوا عقائدهم وآراءهم عن آبائهم وأجدادهم، لا لشيء سوى أنهم آباؤهم وأجدادهم. وكأنهم يرون أن السبق الزمنى يخلع على خطة السابقين وآرائهم في المعتقدات وأفهامهم في النصوص قداسة الحق وسلطان البرهان، فالتزموها وتقيدوا بها، وسلبوا أنفسهم خاصة الإنسان، خاصة البحث والنظر. وفي هذا الشأن يقول الله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱتَّبِعُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُواْ بَلۡ نَتَّبِعُ مَآ أَلۡفَيۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ أَوَلَوۡ كَانَ ءَابَآؤُهُمۡ لَا يَعۡقِلُونَ شَيۡـٔٗا وَلَا يَهۡتَدُونَ ﴾[البقرة:١٧٠]، ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ قَالُواْ حَسۡبُنَا مَا وَجَدۡنَا عَلَيۡهِ ءَابَآءَنَآۚ ﴾[المائدة:١٠٤].

الجمود مُصادِم لقانون النمو:

حكى عنهم الجمود على ما كان عليه سلفهم، فهم يرثون أفكارهم وآراءهم كما يرثون عقارهم وأرضهم، وحكى عنهم اكتفاءهم بمعتقداتهم الموروثة، ووقوفهم بأنفسهم عندها دون أن يتجهوا إلى الترقِّي والتدرج في العلم والعمل، ولا شك أن كلا الموقفين: الجمود عند الموروث، والاكتفاء به مصادم لما تقضي به طبيعة الكون وطبيعة كل حي من النمو والتوليد، والتناسل الفكري كالتناسل النباتي والحيواني والإنساني، كلاهما شأن لابد منه في الحياة، ولو وقف التناسل الفكري لارتطم الإنسان في حياته بكثرة ما تلد الطبيعيات التي هو منها، وعندئذ يعجِز عن تدبير الحياة النامية التي لم يقدر لها النماء إلا خدمة له، وسبيلًا لخيره ونفعه، فيتحقق فشَلُه في القيام بمهمة الخلافة الأرضية التي اختير لها ووكِلت إليه منذ القِدم.

الجمود على القديم سلْب لإنسانية الإنسان:

وإذا كان الجمود على آراء المتقدمين لمجرد أنهم متقدمون مصادمًا لقانون النمو والتناسل الطبيعي، فهو في الوقت نفسه سلْب لمِزيَّة الإنسان في التمييز بين الحق والباطل، والملائم وغير الملائم، فيفعل ما يفعل دون عقيدة، ويترك ما يترك دون عقيدة، ومثل هذا لا يجد لنفسه حظًّا في أن يفعل أو في أن يترك، وإنما يقاد بالزِّمام، وزمامه صور الآباء والأجداد، فهي دائمًا تجذبه القهقرى، ولا يجد من نفسه

عونًا على التقدم، فيقع في ضيق من الحياة المتجددة حوله: ﴿ وَإِذَا فَعَلُواْ فَٰحِشَةً قَالُواْ وَجَدۡنَا عَلَيۡهَآ ءَابَآءَنَا ﴾[الأعراف:٢٨].

ويظل كذلك حتى تنزل به غاشية من صَوْلة الطبيعة النامية، فتذهب به إلى حيث ذهب الغافلون.

وخلاصة القول أن الجمود على آراء المتقدمين، وحظهم في العلم والمعرفة، وأسلوبهم في البحث والنظر، جنايةٌ على الفطرة البشرية، وسلبٌ لمزيَّة العقل التي امتاز بها الإنسان، وإهدار لحجة الله على عباده، وتمسك بما لا وزن له عند الله.

هذا وقد نشأ المسلمون في ظل ما قرره الإسلام، ودعا إليه القرآن، ففكروا وبحثوا وتعقلوا، وطلبوا البرهان، وأنكروا التقليد، فسادوا وسادت بهم الأمم، ثم لأمر ما انقلبوا على رءوسهم، وتعفنت أمعاؤهم، وتولدت في أدمغتهم حمَّى التقليد، فجهِلوا أنفسهم، وجهِلوا الكون، وجهِلوا الحياة، وتفرقوا في دين الله وكانوا شِيعًا، فأبطَلوا حجة الله على خلقه، وصاروا حجة على دينه وشرعه.

زعموا أن لآبائهم عصمة تمنعهم من النظر في أقوالهم، وبذلك لَبِسَ الدين فيما بينهم أثوابًا مختلفة الألوان، مختلفة النسيج، وراجت عند الجميع البدع والخرافات، وعقدت على دين الله غبارًا كثيفًا، فنفَر الناس منه، وأعرضوا عنه، واتهموه بالعنف والتطرف

والاضطراب بين حلالٍ وحرامٍ، وصحيحٍ وفاسدٍ، وقوي وضعيف، وأخذوا يتأهبون للخلاص، ناقمين على طوائف الدين مواقفَهم من موروثاتهم، التي جعلته في جانب وحياة الناس في جانب آخر.

ألا فليعلم هؤلاء جميعًا أن صدر الحياة، الذي يتسع كل يوم وكل ساعة، أصبح غير قابل لضغطٍ تَضيق به رقعته ويرجع إلى أغلال الموروثات الأولى، فلينظروا في أي وضع يكونون، وعلى أي منهج يسيرون، حتى يحفظوا لله شرعه، ويقيموا له دعوته.

استخلاف الإنسان في الأرض:

لم يُخلقْ الإنسان في هذه الحياة ليعبثَ أو ليلهوَ، ولم يُخلقْ ليطغى بقوته وجبروته، ويستبدَّ قويُّه بضعيفه، وإنما خُلِق ورُكِّب فيه ما ركب من قوى العلم والإدراك وآلات العمل والإنتاج، وسُخِّر له الكون في أرضه وسمائه، ومائه وهوائه لحكمة سامية تعبر عن جلال الله وجماله، هي أن يكون خليفة في الأرض، يعمرها ويعمل على إصلاحها، واتساع عمرانها، وإظهار أسرار الله فيها، وإقرار الخير والسعادة في نواحيها. وبذلك تكون مظهرًا لرحمة الله بعباده، وآيةً من آيات قدرته وحكمته.

وقد أرشد إلى هذه الحكمة كثير من آيات القرآن، منها قول الله تعالى وهو يحدث عن مبدأ خلق الإنسان: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَـٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ قَالُوٓا۟ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ ۖ قَالَ إِنِّىٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٣٠﴾ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَـٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا۟ سُبْحَـٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَـٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠-٣٣].

فتجلت للملائكة حكمةُ استخلاف الإنسان في الأرض، واعترفوا له بالمكانة التي أعدت له في هذه الحياة. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَـٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَـٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ﴾ [الأنعام: ١٦٥]، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَأَنفِقُوا۟ مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ ۖ﴾ [الحديد: ٧]، وقوله: ﴿يَـٰدَاوُۥدُ إِنَّا جَعَلْنَـٰكَ خَلِيفَةً فِى ٱلْأَرْضِ فَٱحْكُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ بِٱلْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعِ ٱلْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ﴾ [ص: ٢٦].

العلم والصحة:

وإذا كانت هذه هي مهمة الإنسان في الحياة، بقوى العلم والعمل، وحكمة تسخير الكون واجتماعه له في التفكير والتصريف، فإنه لا

سبيل إلى قيامه بهذه المهمة وتحقيق تلك الحكم إلا إذا تحصَّن بالعمل ليعرف الخير من الشر، والنافع والضار، والمُعَمِّر من المخرِّب، وتحصَّن كذلك بالصحة ليَكْمُلَ عقله، ويَسْلَم تدبيرُه، وتتصل جهوده.

فالمعرفة والصحة عنصران لابد منهما في قيام الحياة على الوجه الذي يحقق حكمة الخالق في الخلق، وليس في الحياة شيء إلا وهو محتاج إليهما، متوقِّف عليهما، وليس ـ فيما نعلم ـ مقوضًا لأصل السعادة، وقاضيًا على الهناءة، ومفككًا لعُرَى التعاون، ومضيعًا للعزة والسلطان، مثل الجهل والمرض، فهما بحق أصل البلاء، ونذير الاضمحلال والفَناء.

الإسلام يعلن الحرب على الجهل:

ومن هنا عُني الإسلام عناية كاملة بالإرشاد إلى الوسائل التي تطهر المجتمع من الجهل، والتي تطهره من المرض، فهو قد حارب الجهل وتتبَّعه في كل وكْر من أوكاره، وفي كل لون من ألوانه. حارب جهل الشرك بالتوحيد، وبث في النفس والآفاق دلائله، ولفَت الإنسان إليها، وحثَّه على النظر والتفكير فيها، ليؤمن بأن العظمة التي يخضع لها ليست لأحد سواه، فلا تعترضه في طريق الكمال ما ينسجه الإنسان حوله من صور العظمات الزائفة.

حارب جهالة التقليد وأنكر على الإنسان أن يُسلِّم عقله لغيره، وأن يقفَ في عقائده ومعارفه ووسائل الحياة عند ما خلَّفه الآباء والأجداد من الأوهام والخرافات.

تعلم القراءة والكتابة:

حارب جهالة الأمية، وأوحى بتعلم القراءة والكتابة، ورفع من شأن التعلم. ولا بد هنا من وقفة يسيرة لنرى مبلغ عناية الإسلام بمحو الأمية، والإرشاد إلى وسيلته. وحسبنا في ذلك أن يكون أول نداء إلهي يفتتح به الله وحيه إلى نبيه محمد ﷺ، باسم (الربوبية). تلكم الآيات الكريمة: ﴿ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ٱلَّذِي خَلَقَ ۝١ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ مِنۡ عَلَقٍ ۝٢ ٱقۡرَأۡ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق١-٥]، يأمر بالقراءة. والقراءة سُلَّمُ المجد، وطريق العلم والمعرفة، ثم أرشد إلى الاستعانة عليها باسم (الرب) مُفيضِ التربية ووسائلها على جميع الخلق، فيشعر الإنسان بعزة شأنها ورفعة قدْرها، وأنها من الشئون العظمى ذات البال والخطر، ثم يذكر خلْقَه وتكوينَه في هذا المقام ويُردِفه بنعمة العلم، ﴿ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ﴾ [العلق:٥-٤].

وبذلك يسوي بين نعمة الخلق والإيجاد ونعمة العلم، ويكون ذلك إيحاء بأن المخلوق الجاهل لا اعتداد بوجوده في هذه الحياة. وتنويهًا بشأن القلم ومكانته في العلم والمعرفة، يقسم به الله في معرض تبرئة الرسول ﷺ من أفدح التُّهم الباطلة التي ألصقها القوم به ﷺ، هي تهمة الجنون، ﴿نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ۝١ مَآ أَنتَ بِنِعۡمَةِ رَبِّكَ بِمَجۡنُونٖ﴾ [القلم:١-٢].

القلم ليس خاصًا بمعرفة الدين:

وكما يطلب القراءة على الإطلاق دون تقييد بمقروء مخصوص، يطلب العلم والنظر على الإطلاق، دون تقييد بمعلوم مخصوص أو منظور مخصوص، ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر:٩].

ويرشدنا هذا الإطلاق إلى أن (العلم) في نظر القرآن ليس خاصًّا بعلم الشرائع والأحكام من حلال وحرام، وإنما العلم في نظره هو كل إدراك يفيد الإنسان توفيقًا في القيام بمهمته العظمى التي ألقيت على كاهله منذ قُدر خلقه، وجُعل خليفة في الأرض، وهي عمارتها، واستخراج كنوزها، وإظهار أسرار الله فيها. فإدراك ما يصلح به النبات وينمو ويثمر، وما تستنبت به الأرض وتحيا، علم. وإدراك ما يصلح الحيوان، ويستمر به نسله، وتتصل قوته، علم. وإدراك الطرق المشروعة التي تحصل بها الأموال، والتي تُنظم بها مواردها ومصارفها، علم. وإدراك موارد الصناعة على اختلاف أنواعها وكيفياتها وتوزيعها، علم. وإدراك الأمراض وعللها وكيفية علاجها وطرق الوقاية منها، علم وإدراك ما تعرفه الأمم من وسائل الدفاع والهجوم، حفظًا للأوطان، ودفعًا لما يرهبهم، علم.

وقد جاء الإيحاء بهذا كله واضحًا جليًّا في القرآن الكريم، وبه كان العلم - بمعناه العام الشامل - العنصر الأول من عناصر الحياة في نظر الإسلام.

أسلافنا أدركوا قيمة العلم بكل فنونه:

أدرك المسلمون الأولون إيحاء القرآن في كل ذلك، فأدركوا قيمة العلم ومنزلته وضرورته في سعادة الأمم والأفراد:

كانوا أمة أمية لا تقرأ ولا تكتب فجدُّوا في محو أمِّيتهم بكل الوسائل، حتى أطلقوا سراح الأسير؛ إذا هو علَّم عددًا من أبناء المسلمين القراءة والكتابة، وجعلوا تعليم القرآن مهرًا في الزواج، وأطلقوا لأنفسهم سراح النظر في الكائنات، فأدركوا منها ما يسعدهم في الحياة، ويجعلهم أئمة يهدون بأمر الله.

رفعوا بالعلم مكانة الخامل، وكان فيما بينهم نسب الوضيع، وغنى الفقير، وقوة الضعيف. وفي بطون التاريخ والمكتبات الإسلامية والعالمية، من المؤلفات والمترجَمات في شتى العلوم والفنون والصنائع وجميع فروع العلم والمعرفة؛ ما يشهد لهم بالتركُّز العلمي، ويشهد لكل جيل بمنهجه في علمه ومعارفه التي وصل إليها بجهوده وتفكيره، دون الوقوف عند ما ترك السابقون، بل نظروا وبحثوا، واختاروا واختبروا وابتكروا، وبذلك اقتعَدوا[١] مكانة الأستاذية العامة المطلَقة، وكانوا حقًّا جديرين بأن يكونوا كما وصف الله: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

تسلك إلى الخير طريقه، وتسد دون الشر سبيله.

---

(١) أي ركبوا. المصباح المنير ٢/ ٥١٠(ق. ع. د).

أملنا في نهضة علمية جديدة:

هذه مكانة العلم في بناء المجتمع كما يقررها القرآن ويوحى بها، وإني أرجو أن يكون الزمان قد هيأ نفسه ليستدير بالمسلمين كهيئته الأولى، وأن يكونوا بما وقعوا فيه من إحَنٍ[1] ومِحَنٍ قد تكاملت في نفوسهم عوامل اليقظة والوعي، وآمنو بأن عزة أسلافهم وعزة الناس من حولهم كان العلم أول عناصرها وأقواها، وآمنوا بأن الذِّلة، وتهافت الأمم عليهم والتي نُكِبوا بها، كان الجهل والتَّلهِّي بالشخصيات والنظريات والجدليات والفروض الوهمية والأوهام والخيالات، والعناية بما يكِنُّه الغيب عن طريق الدَّجَل، كان كل ذلك أول عناصرها وأقواها.

وإني لأحس إحساسًا قويًّا بأن النهضة العلمية آخذة - بإخلاص القائمين بها، المشرفين عليها، الفاهمين لها - طريقها إلى ما يمحو الأمية ويحقق للأمة الخير والسعادة، ويرد آخرها إلى أولها، فننعم بما نعِموا، ونسعد بما سعِدوا، ونخلع ما نحن فيه من ذل وشقاء، وتكون العزة كما يحب اللهُ، ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [المنافقون:٨].

* * *

(١) الإحن: الأحقاد. مقاييس اللغة (أ. ح. ن).

الإسلام والسلام

أ.د/ محمد عبدالله دراز (*)

عضو جماعة كبار العلماء

إذا كان الإسلام قد دعا إلى السلام وتدعيم العلاقات الطيبة مع العالم أجمع، فَلِمَ كانت حروبه في المرحلة الأولى من الدعوة وما تبعها؟

إنه ليس أخطر على الباحث في الشريعة الإسلامية من الوقوف عند أطرافها المجملة؛ لأنه بذلك يَدَعُ نصوصها تتصادم وتتخاصم حتى إذا سعى في الصلح بينها برأيه، لم يأمن على نفسه الهوى والزَّلل في تأويلها. وهذا شأن اتباع المتشابه الذي نُهِي عنه، وإنما يستبين موقف الإسلام واضحًا جليًّا في هذا الضرب من المسائل، حيث يلتمس حلُّها في تلك الآيات الجامعات، التي تلتقي فيها الأطراف على قدر، والتي يبرز بها التشريع الإسلامي في وحدة لا تنقسم، وعروة لا تنفصم، تلك هي الآيات المحْكمات وهن أم الكتاب.

هذا الطراز من التشريع الثلاثي مفتاحه إذًا في وسطه لا في طرفيه، ورُوحه في قلبه لا في جناحيه. وسنريك الآن أين الأطراف، وأين الأوساط في موضوع حديثنا. فانظر ههنا، في أقصى الجانب الأيمن!

(*) مجلة الأزهر، عدد شهر جمادى الآخرة ١٤٣٤هـ/ أبريل-مايو ٢٠١٣م، الجزء (٦).

أليس يبرز الإسلام أمامك في شِعاب (مكة) ووِدْيانها رافعًا رايته، باسطًا جناحي رأفة ورحمة يفيء إلى ظلهما الوارف، أنصاره وأعداؤه على السواء؟ ألست تسمع كتاب الإسلام وهو يحدد مهمة حامله؟ فإذا هي هداية وإرشاد، وموعظة وتذكير، وإنذار وتبشير، ويجمع ذلك كله في كلمة واحدة:(بلاغ)، قال تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ﴾ [النحل:١٢٥]، وقال تعالى: ﴿ إِنَّكَ لَا تَهْدِى مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ﴾ [القصص:٥٦]، وقال تعالى: ﴿ فَذَكِّرْ إِنَّمَآ أَنتَ مُذَكِّرٌ ﴿٢١﴾ لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ ﴾ [الغاشية:٢١-٢٢].

وزد ما شئت من سماحة وكرم، لا ترى فيهما شائبة لعنف ولا لانتقام، ولا آثارة من مقاومة أو اصطدام، الإسلام إذًا هو رسالة السلام. ولكن هلمَّ إلى الطرف الآخر!

ألست تسمع من قبل (المدينة) صيحات النفير إلى النِّزال وقَعْقَعة السلاح في ميادين القتال؟ أو لست ترى هنا أشلاءً تتناثر، وأطرافًا تتطاير، وأعناقًا تُدَقُّ، ودماءً تُسفَك، وأرواحًا تزهق، وأسرى يُشدُّ وثاقهم، وشهداء يهنئون بنَبيل تضحياتهم، ويبشَّرون بعظيم أجورهم؟

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِ ﴾ [الأنفال:٦٥].

الحرب إذًا شريعة إسلامية، وفريضة محمدية. بل هي أعظم من ذلك، إنها عنصر أصيل من عناصر الإيمان الصادق. بالله! ما أبعدَ الشُّقَّة[1]، وأشدَّ المفارقة! أَمِن الإسلام الأبيض الناصع الرحيم المتواضع، إلى الثورة الحمراء القانية والحرب الفاتكة المهلكة؟

تلك هي المشكلة التي فتحت باب التعليل والتأويل أمام الذين يأخذون الأمور من أطرافها وما أكثر الفروض. وما أبعد تشعُّب الظنون حين يتحرر المرء من قيود العيان والبرهان! وما أشد إغراء الهوى لمن وقف في محراب العلم وهو لَمَّا يُفيق من نشوة نَزَعاته وعصبياته، ولَمَّا يتجرد من سلطان عقائده وعوائده! هنالك يطير خلف كل سانحة وبارحة من الرأي، فيمسك بأيِّها كان أحبَّ لقلبه وأكثر تملقًا لشعور قومه، ثم يرسلها في الناس باسم العلم وفلسفة التاريخ.

وما هي من العلم ولا من التاريخ في شيء! ذلك مثل فريق من كتاب الغرب حين تفرقت بهم السبل في معالجتهم لهذه الشخصية.

أكان محمدًا متعطشًا للدماء بفطرته ولم يمنعه من سفكها إذ كان في (مكة) إلا أنه كان من الأعوان في قلة ولم يكن أعوانه في عامة الأمر يومئذ إلا الضعفاء والمستضعفين، فكان تسامحه حينذاك ضرورة

(١) الشقة: المسيرة والطريق. تهذيب اللغة (ش. ق. ق) ٨/ ٢٠٥، أساس البلاغة (ش. ق. ق) ١/ ٥١٥.

أجأه إليها العجزُ وفقْدُ النصير، حتى إذا واتته الفرصة في موطنه اهتبلها وغمس يده في الدماء إشباعًا لغريزة الثأر والتشفِّي؟

أم كان هذا الموقف الحربي متحركًا بحركة قسرية لا يستمليها من قرارة قلبه، ولكنه دُفع إليها دفعًا، وكان فيها تابعًا لا متبوعًا؟ ذلك أنه وجد نفسه في قوم عاشوا جُلَّ دهرهم على الغارات والحروب، فما كان منه إلا أن نزل على إرادتهم وجرى في تيارهم.

لقد قلبوا وجوه الرأي وذهبوا فيها كل مذهب، ولكنهم حيثما ذهبوا لم يجدوا إلا برقًا خُلَّـبًا[١]، وسرابًا خادعًا.

نعم فقد اصطدموا بحقائق التاريخ في كل مسلك سلكوه، وضلوا ضلالًا بعيدًا في كل شيء ضربوه. ذلك أن الذين درسوا منهم نفسية محمد ﷺ في مختلف أطواره: في شبابه وكهولته، في بأسائه ونَعمائه، حتى في أوج سلطانه، شهدوا بأن محمدًا لم يكن يومًا ما، فظَّ الطبع، ولا غليظ القلب، وفي الوقت نفسه بأنه لم يكن يومًا ما إمعةً[٢] في رأيه، ولا رخْوًا في حكمه، وأنه لم يعرف عن أمة في التاريخ أنها كانت أطوع لملك أو قائد أو زعيم من قوم محمد ﷺ له، لا يمليها سوط ولا صولجان[٣]، ولكن يبعثها الحب والمهابة والطاعة والثقة

(١) البرق الخُلَّب: الذي يلمع، ولا مطر فيه. تهذيب اللغة (خ. ل. ب) ٢/ ٢٥٧.
(٢) الإمعة: الضعيف الرأي الذي يتابع كل أحد يقول له أنا معك. مقاييس اللغة (أ. م. ع) ١/ ١٣٩، النهاية في غريب الحديث والأثر ١/ ٦٧.
(٣) الصولجان، فارسي معرب: عصا الملك ترمز لسلطانه. تهذيب اللغة (ص. ل. ج) ١٠/ ٢٩٨، والمعجم الوسيط (ص. ل. ج) ١/ ٥٢٠.

والإيمان، وكذلك شهد التاريخ أن خروج محمد ﷺ من القرية الظالمة إلى دار الأنصار، لم يكن سببًا في تحول سياسته مع قريش من اللطف إلى العنف، ومن المسالمة إلى المقاومة، على الرغم من وضوح حقه في هذا التحول وتمكُّنه منه، فقد بايعه الأنصار من قبل هجرته إليهم، وأعطَوه المواثيق الغِلاظ على مؤازرته ونُصْرته. فلو أنه فكر في الثأر لرمى بهم في وجه عدوِّه من أول يوم، ولكانوا أطوعَ له من بَنانِه، ولكنه لَبِث فيهم زُهاءَ عامين شغل في أثنائهما شغلًا مستغرقًا بشعائر دينه، وشئون قومه، وكان كل شيء في سيرته إذ ذاك يدل على أنه قد تناسى الماضي بحسناته وسيئاته، وأنه قد اطمئن الاطمئنان كله إلى حياته الجديدة.

وجملة القول: إن خوضه غمارَ الحرب لأول مرة كان حادثًا فجائيًّا حقًّا، لم تُمَهَّد له مقدمات من حياته بالمدينة، كما لم تمهد له مقدمات من ميوله ونزعاته، ولا من شخصيته ومنزلته في قومه.

هكذا فشِل كتَّاب الغرب في محاولتهم تعليل هذا الموقف الجديد، بأسباب وعوامل التمسوها في المعسكر الإسلامي. وكان الإنصاف العلمي يقضي عليهم أن يلتمسوها بعد ذلك في الجانب الآخر فلم يفعلوا. ولو أنهم طرقوا الباب لوجدوا من ورائه ضالَّتهم، ولَقبضوا من فَوْرهم على جريمة الحرب في مهدها ومولدها.

فالواقع أن أول حرب في الإسلام لم يوقدْها المسلمون، بل كانوا وقودها، وأن أعداء الإسلام هم الذين أشعلوا نارها، وأطاروا شررها، لا أقول إنهم كانوا سببها البعيد فحسب، بل كانوا هم معلنيها عمليًّا والمتسببين فيها من طريق مباشر، وما كان من المسلمين إلا أنهم قبلوا التحديَ، وردوا التعديَ.

إن قريشًا غيرت أسلوبها - بعد الهجرة - في معاملة المسلمين المستوطنين في مكة. خلا لها الجو فوالت التنكيل بهم وما زال طغيانها عليهم يزداد يومًا بعد يوم، حتى عِيل صبرُهم، وطفَح كيلُ بلائهم، فهنالك أخذوا يجأرونَ إلى الله مستغيثين، في صرخات عالية تسمع دويَّها في القرآن الكريم وهناك فقط أمر الله المهاجرين والأنصار أن يَخِفُّوا لإغاثـتهم، فكان ذلك هو أول تحريض على القتال: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [النساء:٧٥].

لم تكن الغزوة الأولى إذًا حملة تحرشٍ وبدءًا بالعدوان، كما زعم الجاهلون، فذلك ذنب خليق أن يُعتذر منه لو وقع. ولم تكن دفعة ثأر وانتقام لجروح قديمة قد اندملت، أو محاولة تعويض واسترداد لحقوق استولى عليها الأعداء من ديار المهاجرين وأموالهم، كما قد يظن بادئ الرأي ولو فعلوا لكان حقًّا لهم تقره الشرائع السماوية

والوضعية كافة، ولكنه حق مشروع فحسب، وكان من السائغ التنازل عنه، كلا، لم يكن هذا ولا ذاك، ولكنها كانت عملًا أعلى من ذلك كله وأسمى. لقد كانت قيامًا بواجب مُنزَّه القصد، مُبرأ الغاية عن كل الأغراض والمنافع العاجلة، واجبُ نَجْدةِ المظلوم، وإغاثة الملهوف. فهي إذًا صفحة فِـخار جديرة أن تسجل في أعلى مكان من ديوان التضحية والإيثار، وليست عملًا عاديًّا يتطلب التسويغ أو الاعتذار!

والآن وقد صححنا الوضع في هذا الحادث التاريخي الذي ضلت به الأفهام، وزلت فيه أقلام، نعود إلى سياق الحديث عن المبادئ العامة فنقول: إن أمثال هذه الضلالات والزلّات في تحديد موقف الإسلام من الحروب، مردَّها - كما أسلفنا - إلى النظرات الجزئية الجانبية في نصوص التشريع، وإلى تلك الوقفات المتردِّدة عند أطرافها المتباعدة. ولا ريب في أن المقارنة بين الدعوة إلى الإسلام في السور المكية، وبين التحريض على القتال في آيات من التشريع المدني، وهو آخر دَوْرَي التشريع الإسلامي، كانت مثار شبهة وفتنة لكثير من النفوس المريضة، فقد خُيل إليها أن شريعة القتال جاءت قاعدة عامة ختمت بها الدعوة المحمَّدية، وأنها تمثل انقلابًا نهائيًّا مُحيت به آيةُ السلام في الإسلام. وإنه لمن العجيب والمؤسف حقًّا أن أكثر الكتاب الغربيين لا يزالون إلى يومنا هذا يرددون صدى هذا الضلال القديم،

حتى إن بعض كبار المستشرقين - الذين عاشوا بيننا ودرسوا لغتنا وتولوا إدارات فنية في دُورنا العربية - كتبوا في الموسوعات الأوروبية الحديثة فصولًا مطوَّلةً عن الإسلام، قرروا فيها هذه النظرية الخطأ، وكانت زلَّتهم - كغيرهم - أنهم نظروا في التشريع القرآني إلى طرفي خطَّيْه المنفرجين، ولم يحوموا حول رأس الزاوية التي يلتقي عندها الخطان.

وها نحن أولًا ندعو الباحثين المنصفين منهم أن ينتقلوا معنا من هذه الأطراف إلى الحد الوسط، الذي كان وجوده في القرآن حكمة بالغة، وحجة دامغة، تنقطع عند نصوصها كلُّ الفروض والظنون، وتنهزم أمامها كل التأويلات والتعليلات، فإنه متى ظهر النص بطَل القياس، ومتى طلَع النهار ذهب كل لبسٍ والتباس.

أجَل: إن القرآن الحكيم لم يكتفِ في تعيين مُراده بأنه كان يدعو إلى السلم في ظروف وملابسات عادية توائمه، ويأمر بالقتال في ظروف وملابسات استثنائية تُحتِّمه، ولو أن القرآن نزل لأهل عصره وَحْدَهم لكفاهم ذلك، إذ كان واقع الحال في كلا المقامين تفسيرًا شافيًا لموقع كل تشريع، وتحديدًا كافيًا لمجال تطبيقه، أمَا وهو دستور الإنسانية الخالد فقد كان من الحكمة السامية ألا يعتمد في تحديد مقاصده على ظروف واقعية في عصر نزوله، لا تلبث أن تُنسى إذا طال العهد بها، وكان من الرحمة الشاملة أن يسجل أهدافه بنفسه في نص صريح

يضع كل تشريع في موضعه، ويكون مرجعًا للناس على مر العصور والأجيال، ولا سيما في قضية الأمن العالمي التي يرتبط بها مصير البشرية جمعاء.

ولقد قام القرآن بهذه المهمة على أدقِّ وجه في آيات جامعات استبان بها أن الحرب ليست هي القاعدة، إنما هي استثناء من القاعدة، وأنها لا يخلقها الإسلام، ولكن يخلقها أعداؤه بعدوانهم المسلح على دعوته السلمية، إنها ضرورة تُقدر بقدر أسبابها، وعقوبة تزول بزوال الجريمة التي استوجبتها، وبالجملة إنها محدودة بحدود الدفاع المشروع لا تستقدم عنه خُطوة ولا تستأخر خُطوة: ﴿ وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمۡ وَلَا تَعۡتَدُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلۡمُعۡتَدِينَ ﴾ [البقرة:١٩٠]، ﴿ فَإِنِ ٱنتَهَوۡاْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٞ ﴾ [البقرة:١٩٢]، ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا ﴾ [الأنفال:٦١]، ﴿ فَإِنِ ٱعۡتَزَلُوكُمۡ فَلَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ وَأَلۡقَوۡاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ فَمَا جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سَبِيلٗا ﴾ [النساء:٩٠]، ﴿ فَإِن لَّمۡ يَعۡتَزِلُوكُمۡ وَيُلۡقُوٓاْ إِلَيۡكُمُ ٱلسَّلَمَ وَيَكُفُّوٓاْ أَيۡدِيَهُمۡ فَخُذُوهُمۡ وَٱقۡتُلُوهُمۡ حَيۡثُ ثَقِفۡتُمُوهُمۡۚ وَأُوْلَٰٓئِكُمۡ جَعَلۡنَا لَكُمۡ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينٗا ﴾ [النساء:٩١].

لقد أبطل الإسلام حروب العصبية الدينية، قال تعالى: ﴿ لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ ﴾ [البقرة:٢٥٦]، ﴿ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ ﴾ [يونس:٩٩].

ومنع حروب التشفي والانتقام للإساءات الأدبية: ﴿وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟﴾ [المائدة:٢].

وأنكر حروب التخريب والتدمير، وحروب التوسع والاستيلاء: ﴿تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ [القصص:٨٣].

واستنكر حروب التنافس بين الأمم في مجال الضخامة والفخامة: ﴿وَلَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّتِى نَقَضَتْ غَزْلَهَا مِنۢ بَعْدِ قُوَّةٍ أَنكَـٰثًا تَتَّخِذُونَ أَيْمَـٰنَكُمْ دَخَلًۢا بَيْنَكُمْ أَن تَكُونَ أُمَّةٌ هِىَ أَرْبَىٰ مِنْ أُمَّةٍ﴾ [النحل:٩٢].

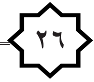
فهل كان يراد منه فوق ذلك كله أن يمحو حق الدفاع عن النفس والحليف، وواجب الذَّود عن المستضعف والمظلوم؟ كلا: إن الإسلام دين إحسان، ولكنه إحسان لا يناقض العدل، ولا يشجع الإجرام، ولا يدَع الحق مكبَّل اليدين إذا أراد الباطل أن يَفْتِك به، إنه ذو رحمة واسعة، ولكنه لا يُردُّ بأسه عن القوم المجرمين. فهو دين عدل وإحسان معًا، وبذلك فَضَلَ الشرائع السابقة التي فرقت بينهما. ولقد علَّمنا كيف يَنزِلُ بالحكمةِ كِلا المبدأين في منزلته، وحذرنا أن نضع واحدًا منهما في موضع صاحبه.

فوضْعُ النَّدَى موضعَ السيف بالعُلا

مُضِرٌّ كوضعِ السيفِ في موضعِ النَّدَى [1]

***

(١) البيت للمتنبي في ديوانه ١/ ١٩١.


٢٦

الإسـلام وكـرامـة الفـرد

أ.د/ محمد عبد الله دراز(*)

عضو جماعة كبار العلماء

الفرد هو اللبِنة في بناء المجموع، وهو عضو مؤسس في العلاقات العامة، فهل عرف الفرد الإنساني ماله في دستور الإسلام، من منزل عزيز كريم؟

إن الكرامة التي يقررها الإسلام للشخصية الإنسانية، ليست كرامةً مفردةً، ولكنها كرامةٌ مثلثةٌ: كرامة هي عصمة وحماية، وكرامة هي عزة وسيادة، وكرامة هي استحقاق وجدارة ـ كرامة يستغلها الإنسان من طبيعته: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ﴾ [الإسراء: ٧٠]، وكرامة تتغذى من عقيدته: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِۦ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون:٨]، وكرامة يستوجبها بعمله وسيرته: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُواْ﴾ [الأنعام:١٣٢]، ﴿وَيُؤْتِ كُلَّ ذِى فَضْلٍ فَضْلَهُۥ﴾ [هود: ٣].

أوسع هذه الكرامات وأعمُّها وأقدمها وأدومُها، تلك الكرامة الأولى، التي ينالها الفرد منذ ولادته، بل منذ تكوينه جنينًا في بطن

(*) من كتاب نظرات في الإسلام، أ.د محمد عبد الله دراز، ملحق مجلة الأزهر، عدد ذي القعدة ١٤٣٦هـ/ أغسطس – سبتمبر ٢٠١٥م.

أمه. كرامة لم يؤدِّ لها ثمنًا ماديًّا ولا معنويًّا، ولكنها منحة من السماء التي منحته فطرتَه، والتي جعلت كرامته وإنسانيته صِنْوَيْن مقترنين في شريعة الإسلام.

ما حقيقة تلك الكرامة؟

إنها – قبل كل شيء – سياجٌ من الصيانة والحصانة، هي ظل ظليل ينْشُرُه قانون الإسلام على كل فرد من البشر: ذكرًا أو أنثى، أبيض أو أسود، ضعيفًا أو قويًّا، فقيرًا أو غنيًّا، من أية ملة أو نحلة فُرضت. ظل ظليل ينْشُرُه قانون الإسلام على كل فرد يصون به دمه أن يُسفَك، وعرضَه أن يُنتهَك، ومالَه أن يُغتصَب، ومسكنَه أن يُقتحَم، ونسبَه أن يُبدَّل، ووطنَه أن يُخرَج منه أو يُزاحَم عليه، وضميرَه أن يُتحكَّم فيه قسْرًا، وحريتَه أن تُعطَّلَ خداعًا ومكْرًا.

كلُّ إنسانٍ له في الإسلام «قدسية الإنسان»، إنه في حمى محمي، وفي حرم محرم. ولا يزال كذلك حتى ينتهك هو حرمة نفسه، وينزِع بيده هذا الستر المضروب عليه، بارتكاب جريمة ترفع عنه جانبًا من تلك الحصانة، وهو بعد ذلك بريء حتى تثبت جريمته، وهو بعد ثبوت جريمته لا يفقد حماية القانون كلها؛ لأن جنايته ستقدَّر بقَدْرها، ولأن عقوبته لن تجاوز حدها، فإن نزَعتَ عنه الحجاب الذي مزقه هو، فلن تنزِع عنه الحجُبَ الأخرى.

بهذه الكرامة يحمي الإسلام أعداءه كما يحمي أبناءه وأولياءه، إنه يحمي أعداءه في حياتهم، ويحميهم بعد موتهم؛ يحميهم في حياتهم، فيحول دون قتالهم إلَّا إذا بُدِئوا بالعدوان ويحميهم في ميدان القتال نفسه؛ إذ يؤمنهم من النهب والسلب والغدر والاغتيال، ثم يحميهم بعد موتهم؛ إذ يحرم أجسادهم على كل تشويه أو تمثيل ولم لا؟ أليسوا أناسِيَّ؟ فلهم – إذًا – كرامة الإنسان.

هذه الكرامة التي كرم الله بها الإنسانية في كل فرد من أفرادها، هي الأساس الذي تقوم عليه العلاقات بين بني آدم هذه الكرامة التي جعلها الإسلام درعًا واقيًا يدرأ بها عن الإنسانية نزَوَات الطغاة والجبارين، فهل أشعر الإسلام بها الضعفاء والمستضعفين؟

إن الكرامة نفسها شيء والشعور بها شيء آخر، والشعور الحاد القوي شيء ثالث حَسَنٌ جميلٌ أن تقرر الحق لأربابه وتوضح لهم معالمه ولكن أحسن وأجمل أن تمهد لهم طريق حمايته، وأن تجعل صورته في نفوسهم شعلة متَّقدة تدفعهم للذَّبِّ عنه والاعتزاز به. فهل صنع الإسلام شيئًا لكي يُغرس في نفوس الأفراد ويوقد ناره في قلوبهم؟

نعم إن الإسلام لم يكتف بأن عرَّف كل فرد حقه نظريًّا في هذه الحصانة الإنسانية، ولكنه أخذ يهيب به بأن يدافع عن هذا الحق، وطفِق يحرضه أشد التحريض على أن يقاتل دونه، وأن يضحي بنفسه في سبيله.

ألا فلنسمع صوت نبيِّ الإسلام ﷺ: مَن قُتِل دون مالِه فهو شهيد، ومن قُتِل دون دمِه فهو شهيد، ومن قُتِل دون أهلِه فهو شهيد، ومن قُتِل دون مَظْلِمتِه فهو شهيد(١). هل سمعت أقوى من هذا إلهابًا وتحريضًا؟

بل لنستمع إلى كتاب الإسلام حين ينعي على المستضعفين إخلادهم إلى الذل طمعًا في السلام، ورضاهم بالهوان خوفًا من فراق الأوطان: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَفَّىٰهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ ظَالِمِىٓ أَنفُسِهِمْ قَالُوا۟ فِيمَ كُنتُمْ ۖ قَالُوا۟ كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ قَالُوٓا۟ أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةً فَتُهَاجِرُوا۟ فِيهَا ۚ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴾ [النساء:٩٧]، هل سمعت أشد من هذا وعيدًا وتهديدًا؟

إن الكرامة الإنسانية هي - قبل كل شيء - سياجٌ من الحرمة والعصمة والصيانة والحصانة، تصون صاحبها من أن يهون على الناس، أو يضيعوا حقًّا من حقوقه، أو ينتهكوا حرمة من حرماته ذلك هو جانبها السلمي الخارجي الدفاعي؛ أما حقيقتها الإيجابية فإنها تاج من الشرف والنُّبْل يتقاضى صاحبه أن ينظر إلى نفسه نظرة يعرف بها أن مكانته في هذا العالم مكانة السيد لا المَسُود، لا أعني سيادة الإنسان على الإنسان، فالناس في نظر الإسلام كلهم سيد في نفسه، لا سيادة لأحد على غيره، ولا سيادة لغيره عليه.

---

(١) أخرجه الترمذي في سننه ٤/ ٣٠ (١٤٢١) من حديث سعيد بن زيد رضي الله عنه.
ومظلمته: الظلم الواقع عليه.

وإنما هي، من جهةٍ، سيادةٌ عالميةٌ يسيطر بها المرء على مختلف الأشياء في البر والبحر والهواء، ألم يسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعًا، ولم يسخره هو لشيء منها؟ ثم هي، من جهةٍ أخرى، سيادة ٌذاتيةٌ لكل فرد فيما بينه وبين الناس، سيادة تسوِّي رأسه برءوسهم ومَنْكِبه بمناكبهم، ومن هذه السيادة المزدوجة تتألف المرتبة الثانية من الكرامة الإنسانية، كرامة الحرية والعزة التي تأبى بصاحبها أن يهون على نفسه، وأن يَذِلَّ لمخلوق غيره، كائنًا من كان.

هذه المرتبة من الكرامة هي كسابقتها منحة طبيعية عامة تولد مع الإنسان، غير أنه لا يشعر بها على تمامها، ولا يقدرها حق قدرها إلا المؤمن الموحد الذي لا يعرف السجود لحجر ولا لشجر، ولا لشمس ولا لقمر، ولا لملَك ولا لبشر، وهكذا يضم كرامة الإيمان إلى كرامة الإنسان.

وأخيرًا ترتفع من مستوى الطبيعة ومن مستوى العقيدة إلى مستوى السلوك والسيرة، لتلتقي بمرتبة ثالثة من الكرامة ينشئها المرء إنشاء ويكتسبها اكتسابًا، بما يخطه لنفسه من نهج حميد، وما يحققه بجده وجهده من أهداف رفيعة، مستوحيًا مواهبه الإنسانية العليا، مسيطرًا على قواه وغرائزه الدنيا، مسترشدًا بأمر ربه وهداه، محاذرًا من خدع شيطانه وهواه، تلك هي كرامة العمل الصالح المُصلِح، وإنها لعلى درجات متفاوتة تسير طردًا وعكسًا على نسبة الإتقان والإخلاص في العمل. وهذا يقودنا إلى نقطة مهمة!

الـــــــرِّق:

قد يقول قائل: إذا كان الإسلام قد كرم الفرد وهو لبنة في بناء البشرية، فما لنا نراه لم يَبُتَّ في إلغاء الرِّق؟

ونحن نعجب لمن يتحدث عن الإسلام والرق كأنما يتحدث عن نظامين قابلين للتعاون والتساند، أو عن طبيعتين قابلتين للاختلاط والامتزاج، على حين أن الرق والإسلام ضدان لا يلتقيان، إلا كما يلتقي سواد الليل وبياض النهار.

وهل كانت الصيحة الأولى للإسلام إلا صيحة التحرير من رَبْقَة[(١)] العبودية؟ وهل كانت حملتنا الأولى إلا حملة التطهير من ذل الخضوع، والخنوع لشيء أو لأحد غير الله؟

إن الاسترقاق إهدارٌ للكرامة الإنسانية، فكيف يكون من صنع الإسلام الذي أعلن كرامة الإنسان؟ وإن الاستعباد تبديل للفطرة، فكيف يكون من نُظم الإسلام الذي هو دين الفطرة؟

وإن تَعْجبْ لشيء فاعجبْ؛ لأَنَّ الذين يلصقون هذا الاتهام بالإسلام، قوم يشهد تاريخهم بأنهم هم أنشأوا الرِّق أبيضه وأسوده، وأنهم هم أفشوه ونشروا وباءه في العالم من أبشع الطرق وأشنعها، من طريق الخداع والتمويه، ومن طريق الاختلاس والاغتصاب، وأنهم

(١) الربقة: واحِدة الربق، وهو حَبل ذُو عرى، أَو حَلقَة لربط الدَّوَابّ، والجمع أرباق ورباق، والمراد القيد. المعجم الوسيط: مادة (ر.ب. ق) ١/ ٣٢٥.

جاوزوا فيه الحدود، ولم يكفِهم استرقاقُ الأفراد، فعمَدوا إلى استرقاق الأمم والشعوب. فلندَعْ ذكْرَ هذا الماضي القريب الذي يعرفه الجميع ولنسأل التاريخ عن نبأ ما قبل الإسلام؟

لقد كانت هناك شرائع في الشرق والغرب، في اليونان وفي الرومان، وفي غير اليونان والرومان، فتحت باب الرِّق على مصراعَيْه؛ فكان جزاء القاتل أن يكون عبدًا لولي الدم، وكان المدين الذي يعجز عن وفاء دينه ينقلب مملوكًا لدائنه، وكان السارق الذي يُضبَط عنده متاعٌ، يصبح رقيقًا لرب المال، ومصداقه في قصة يوسف: ﴿قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّـٰلِمِينَ﴾[يوسف:٧٥].

وكان السلطانُ المطلَق المخوَّل لربِّ الأسرة على أعضائها، يبيح له أن يقتل منهم من شاء وأن يبيع من شاء، وكان نِيرُ العبودية متى وضع على عنقٍ فلا فِكاكَ لها منه أبدَ الدهر، إلا أن يتفضل السيد بفكها بمحض إرادته.

هكذا كانت أوضاع المجتمع قبل ظهور محرِّر البشرية، رسولنا محمد خاتم النبيين ﷺ، وقدوة المصلحين.

فماذا صنع النبى محمد ﷺ حين جاء بالإسلام؟ إنه أعلنها ثورةً غاضبةً على هذه الأوضاع كلها، ولكنها ثورة حكيمة منظمة، كثورته على الخمر وثورته على الربا، وثورته على سائر النظم الفاسدة المزمنة،

والرذائل الموروثة المتمكنة.

لقد كانت سوق الرق في كل المجتمعات مقبرة مُفتَّحةَ المداخل مُوصَدَة المخارج، كان الرِّقُّ وباءً يتساقط فيه الناس تساقط الفَراش من النار، وكان الحريق أعظم من أن تطفئه نفخة واحدة، والداء أوسع من أن يعالج بوسيلة مفردة.

فانظر إلى الجهاز الذي أعده نبيُّ الإسلام؛ لإنقاذ هذه العمارة الإنسانية المحترقة المتآكلة، إنه جهاز مركَّب من ثلاثة أجهزة، نطاق من الحواجز ضربه حول النار؛ حتى لا يندلع لهيبها إلى خارجها، ومفاتيح فتح بها أبواب الدار؛ لتطلق منها كل من استطاع النجاة، وميازيب[1] من الغيث صبَّها على من بقي في الدار؛ لتكون النار عليهم بردًا وسلامًا ريثما يتيسر لهم الخروج منها.

وسأفسر لك ذلك:

فأما النِّطاق الذي ضربه الإسلام حول هذه المنطقة المحترقة، فذلك هو الدواء الواقي الذي وقف به سير الداء حتى لا تسريَ عَدْواه إلى غير المصابين، ذلك هو القانون الذي منع به استرقاق الأحرار وأمَّنهم منه، بعد أن كانوا مهدَّدين به من كل جانب. فاليوم لا الخطف والسلب، ولا البيع والشراء، ولا التغلب في المشاجرات والغارات،

(١) ميازيب جمع المئزاب أو المِيزَاب، وَهُوَ قناة أَو أنبوب يصرف بَها المَاء من سطح بِنَاء أَو مَوضِع عَال. المعجم الوسيط مادة (أ.ز.ب) ١/ ١٥.

ولا تحكُّمَ ربِّ الأسرة، ولا العجز عن وفاء الدين، ولا السرقة ولا القتل، لم يعد شيء من ذلك كله، منذ ظهر الإسلام، يصلح مسوِّغًا لاستعباد الإنسان.

ولم يكتف الإسلام بتحصين الأحرار أنفسهم من خطر الاسترقاق، بل إنه حال بينهم وبين أن يَخرج من أصلابهم ذريةٌ تُستعبد، وذلك بمنع التزاوج بين الأحرار والإماء، إلا في حالة الاضطرار وخشية العَنَت والمشقة، وهذا من أوضح الأدلة على أن الإسلام قبل أن يبدأ بالعلاج الشافي من الرق القائم بالفعل، أراد - بهذه التشريعات الواقية - منعَ إنشاء فئة جديدة من الأرقاء.

غير أن ههنا شبهة تجول في الخواطر، ونرى من الأمانة العلمية أن نعرضها، وأن نعالج كشفها وجلاء الحق فيها.

أما الشبهة فهي أن الإسلام وإن كان قد سد كل الأبواب التي أشرنا إليها، والتي كانت تُتخذ ذريعة إلى إنشاء رِقٍّ جديد، إلا أنه قد ترك إلى جانب هذه الأبواب منفذًا صغيرًا لم يغلقْه، ذلك هو حال الحرب الإسلامية المشروعة، وهي التي يعتدي فيها الكفار على بلاد الإسلام[1].

أليست الشريعة الإسلامية قد أباحت للمسلمين في هذه الحال

---

(١) تكون الحرب في الإسلام مشروعة - كذلك - لتحطيم الطاغوت، وإقامة شرع الله في الأرض، لا لإكراه الناس على الإسلام، قال الله تعالى: ﴿فَقَٰتِلُوٓاْ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ﴾ وقال سبحانه: ﴿لَآ إِكْرَاهَ فِى ٱلدِّينِ﴾.

أن يعاملوا أسرى المحاربين لهم بإحدى خطط ثلاث: إما بإطلاق سراحهم، وإما باسترقاقهم ولو كانوا أحرارًا، وإما بقتلهم.

والجواب أن الأمر ليس كما يظنُّه الناسُ في هذه الخطط الثلاث، فالواقع أنها في نظر الإسلام ليست سواءً في المشروعية؛ فنحن إذا نظرنا في نصوص القرآن الكريم، لم نجد فيه أثرًا لقتل الأسير ولا استرقاقه، وإنما نجد له فيه مصيرًا واحدًا كريمًا، وهو إطلاق سراحه ببدل أو بغير بدل ﴿ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعۡدُ وَإِمَّا فِدَآءً ﴾ [محمد: ٤].

كما أننا إذا تتبعنا سُنَّة الرسول الرحيم لا نجد فيها أنه أذِن قطُّ بقتل الأسير، إلا في حالة شاذة نادرة، كان الأسير فيها معروفًا بخطورته وشدة نكايته بالمسلمين، فهو ليس قاعدة عامة، وإنما هو استثناء يطبق على الشاذين الخطرين؛ وهذا هو ما يُعرف في لغة العصر باسم «عقوبة مجرمي الحرب».

بقي الاسترقاق، وواضح أنه يلي القتل في القسوة والشناعة، وأن الإسلام ينظر إليه كنظرته إلى القتل، كما أن الحرية في نظره شقيقة الحياة، ألا ترى كيف جعل كفارة القتل الخطأ تحرير رقبة؟ إن هذا هو تعويض الحياة بالحياة، فإن رفع الرقيق إلى مستوى الحرية يُعد إدراجًا له في زُمْرة الأحياء، بعد أن كان محسوبًا في عِداد الأموات.

وهكذا يتبين لنا أنه ليس في روح التشريع الإسلامي ولا في نصوصه،

ما يشجع المسلمين على استرقاق أسراهم، أو يجعله - في نظرهم - سواءً هو والمنُّ على هؤلاء الأسرى بالحرية، فإن لجأ الإسلام يومًا إلى استرقاق الأسير، فإنما يكون ذلك منه نزولًا على حكم الضرورة؛ اتقاءً لخطره وكسرًا لشوكته وشوكة قومه على أنه لا يجعل ذلك مصيره النهائي، وإنما يأخذه إجراءً مؤقتًا وخطوة انتقالية إلى الحل الصحيح الذي يرضاه، ويلحُّ في المطالَبة بتحقيقه، ألا وهو التحرير الكامل.

وهكذا ينساق بنا البحثُ إلى الشطر الثاني من الوسائل التي أعدَّها الإسلام لمكافحة الرق، وأعني بها تلك الأبواب الواسعة الكثيرة التي فتحها الإسلام لإخراج الأرقاء إلى فضاء الحرية.

• ولعل أول مفتاح لهذه الأبواب كان هو مفتاح القلوب فقد أخذ الإسلام يحرض الناس على عتق الرقاب، ويرغبهم فيها بمختلف الوسائل ﴿فَلَا ٱقْتَحَمَ ٱلْعَقَبَةَ ۝١١ وَمَآ أَدْرَىٰكَ مَا ٱلْعَقَبَةُ ۝١٢ فَكُّ رَقَبَةٍ﴾ [البلد: ١١-١٣]، «من أعتق رقبة أعتق الله بكل عضو منها عضوًا من أعضائه من النار»[(١)].

• ومفتاح آخر هو مفتاح خزائن الدولة؛ إذ جعل فيها سهمًا مقررًا في كل عام لافتداء الأسرى وتحرير المستعبدين: ﴿إِنَّمَا

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٨/ ١٨١ (٦٧١٥)، ومسلم في صحيحه ٢/ ١١٤٧ (٢٢-١٥٠٩) (٢٣-١٥٠٩)، كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ وَٱلۡعَٰمِلِينَ عَلَيۡهَا وَٱلۡمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمۡ وَفِي ٱلرِّقَابِ﴾ [التوبة: ٦٠].

- ومفتاح ثالث: هو مفتاح قانون الكفارات، وهو القانون الذي يجعل عتق الرقاب فريضة لازمة لمحو خطيئة من الخطايا؛ كالحِنْث في اليمين، والفطر في رمضان، والقتل الخطأ، وغير ذلك، ومن أهم هذه الأنواع: كفارة الإساءة التي تقع من السيد في حق العبد نفسه؛ وفي ذلك يقول رسول الرحمة: «من لطم مملوكه أو ضربه فكفارته أن يُعتِقَه»(١).

هذا جزاء اللطمة أو الضربة، أما الجرح أو تشويه الجسم، فإن حكمه عند أكثر الأئمة أنه يصير العبد حرًّا بمجرد إصابته، فينزع من ملك السيد قهرًا عنه؛ وكذلك إذا كلفه سيده أعمالًا فوق طاقته وتكرر منه ذلك، وهكذا يقودنا الحديث إلى الشطر الثالث والأخير من العلاج الإسلامي الرحيم.

لقد رأينا أبوابًا فُتحت أمام الحرية، ورأينا أبوابًا أغلقت دون الرق، بين هذين الطرفين ترى طائفة من الأرقاء يتوجهون نحو باب الخروج ولكنهم لم يصلوا إليه بعد، إنهم هنالك ينتظرون دورهم في استنشاق هواء الحرية المطلق، فهل صنع الإسلام شيئًا لهذه الفئة في فترة الانتظار؟

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٣/ ١٢٧٨ (٢٩ -١٦٥٧) من حديث ابن عمر رضي الله عنهما.

نعم لقد فَتح لهم فيها نوافذ للتهوية، وأعد لهم فيها وسائل للترفيه تجعلهم في هذه الفترة يَحْيَون حياة الإنسان، ولا يشعرون بتلك الفوارق الظالمة بين الطبقات، ذلك أنه أوجب على المخدومين أن يرتفعوا بأسلوب المعيشة لخادمهم إلى المستوى الذي يعيشون فيه هم أنفسهم.

هكذا يقول المبعوث رحمة للعالمين: «إنهم إخوانكم جعلهم الله تحت أيديكم، فأطعموهم مما تأكلون، واكسوهم مما تَلْبَسون، ولا تكلِّفوهم من الأعمال ما لا يُطيقون، فإن كلفتموهم فأعينوهم»[1].

هذا هو موقف الإسلام من الرق:

١- منعٌ لإنشائه وابتدائه.

٢- عملٌ بكل الوسائل على تصفية الموجود وإنهائه.

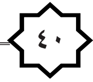
٣- عطفٌ سابغ عليه في أثناء محنته وبليته.

فهل من منصف يقولها معي:

أما والله لعبد في ظل الإسلام خير من كثير من الأحرار في كل نظام.!

***

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ١/ ١٤ (٣٠) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، ولفظه: «فمن كان أخوه تحت يده، فليطعمه مما يأكل، وليلبسه مما يلبس، ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم»، وانظر: ٣/ ١٩٥ (٢٥٤٥)، ٨/ ١٩ (٦٠٥٠)، ومسلم في صحيحه ٣/ ١٢٨٢(٣٨ -١٦٦١)، ٣/ ١٢٨٣ (٤٠ -١٦٦١) بلفظ مقارب.



موقف الإسلام من الأديان الأخرى وعلاقته بها

للأستاذ الدكتور/ محمد عبد الله دراز(*)

عضو جماعة كبار العلماء

إذا أخذنا كلمة (الإسلام) بمعناها القرآني نجدها لا تدع مجالًا لهذا السؤال عن العلاقة بين الإسلام وبين سائر الأديان السماوية. فالإسلام في لغة القرآن ليس اسمًا لدين خاص، وإنما اسم للدين المشترك الذي هتَف به كل الأنبياء، هكذا نرى نوحًا يقول لقومه: ﴿ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴾[يونس: ٧٢]، ويعقوب يوصي بنيه: ﴿فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾ [البقرة:١٣٢]، وأبناء يعقوب يُجيبون أباهم: ﴿نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِۦمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾[البقرة:١٣٣]، وموسى يقول لقومه: ﴿ يَٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾ [يونس:٨٤]، والحواريون يقولون لعيسى: ﴿ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾[آل عمران: ٥٢].

بل إن فريقًا من أهل الكتاب حين سمعوا القرآن: ﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴾[القصص:٥٣].

(*) مجلة الأزهر، عدد شهر رجب ١٤٣٣هـ/ يونيو ٢٠١٢م، الجزء (٧).

وبالجملة نرى اسم الإسلام شعارًا عامًّا يدور في القرآن على ألْسنة الأنبياء وأتباعهم منذ أقدم العصور التاريخية إلى النبوَّة المحمَّدية، ثم نرى القرآن يجمع هذه القضايا كلها في قضية واحدة يوجِّهها إلى قوم محمد ﷺ، ويبين لهم فيها أنه لم يشرع لهم دينًا جديدًا، وإنما هو دين الأنبياء من قبلهم: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ ﴾ [الشورى: ١٣].

ثم نراه بعد أن يَسْرُد سيرة الأنبياء وأتباعهم يَنْظِمهم في سلك واحد، ويجعل منهم جميعًا أمَّةً لها إلهٌ واحد كما لها شريعةٌ واحدة: ﴿ إِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُونِ ﴾ [الأنبياء: ٩٢].

ما هذا الدين المشترك الذي اسمه الإسلام، والذي هو دين كل الأنبياء والمرسلين؟ إن الذي يقرأ يعرف كُنْهَ هذا الدين: إنه هو التوجُّه إلى الله رب العالمين في خضوعٍ خالصٍ لا يشوبه شرك، وفي إيمانٍ واثق مطمئن بكل ما جاء من عنده على أي لسان وفي أي زمان أو مكان، دون تمرد على حكمه، ودون تمييز شخصي أو طائفي أو عنصري بين كتاب وكتاب من كتبه، أو بين رسول ورسول من رسله.

هكذا يقول القرآن: ﴿ وَمَآ أُمِرُوٓاْ إِلَّا لِيَعۡبُدُواْ ٱللَّهَ مُخۡلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ حُنَفَآءَ وَيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤۡتُواْ ٱلزَّكَوٰةَۚ وَذَٰلِكَ دِينُ ٱلۡقَيِّمَةِ ﴾ [البينة: ٥].

ويقول: ﴿ قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ ﴾

[البقرة: ١٣٦].

نقول إذًا: إن الإسلام بمعناه القرآني الذي وصفناه لا يصلح أن يكون محلًّا للسؤال عن علاقة بينه وبين سائر الأديان السماوية، إذ لا يُسأل عن العلاقة بين الشيء ونفسه، فههنا وحدة لا انقسام فيها ولا اثنينية.

غير أن كلمة (الإسلام) قد أصبح لها في عُرف الناس مدلول معين، هو مجموعة الشرائع والتعاليم التي جاء بها محمد ﷺ، أو التي استنبطت مما جاء به، كما أن كلمة اليهودية أو الموسَوية تخصُّ شريعة موسى، وما اشتُقَّ منها، وكلمة النصرانية أو المسيحية تخص شريعة عيسى وما تفرع منها.

فالسؤال الآن إنما هو عن الإسلام بمعناه العُرْفي الجديد، أعني عن العلاقة بين المحمدية وبين الموسوية والمسيحية.

وللإجابة عن هذا السؤال ينبغي أن نقسم البحث إلى مرحلتين:

(المرحلة الأولى):

في علاقة الشرعة المحمدية بالشرائع السماوية السابقة، وهي في صورتها الأولى لم تَبْعُد عن مَنْبعها، ولم يتغير فيها شيء بفعل الزمان ولا بيدِ الإنسان.

(المرحلة الثانية):

في علاقته بها بعد أن طال عليها الأمد، وطرأ عليها شيء من التطور.

أما في المرحلة الأولى: فالقرآن يعلمنا أن كل رسول يرسل وكل كتاب ينزل، قد جاء مصدقًا ومؤكدًا لما قبله، فالإنجيل مصدِّق للتوراة ومؤيِّد لها، والقرآن مصدق للإنجيل والتوراة ومؤيِّد لكل ما بين يديه من الكتب: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم بِعِيسَى ٱبْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ ۖ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْإِنجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلتَّوْرَىٰةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ

عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡحَقِّۚ لِكُلّٖ جَعَلۡنَا مِنكُمۡ شِرۡعَةٗ وَمِنۡهَاجٗاۚ وَلَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَلَٰكِن لِّيَبۡلُوَكُمۡ فِي مَآ ءَاتَىٰكُمۡۖ فَٱسۡتَبِقُواْ ٱلۡخَيۡرَٰتِۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ فِيهِ تَخۡتَلِفُونَ ﴾

[المائدة: ٤٦–٤٨].

غير أن ههنا سؤالًا يحق للسائل أن يسأله:

أليست قضية هذا التصادق الكلِّي بين الكتب السماوية أن تكون الكتب المتأخرة إنما هي تجديد للمتقدمة وتذكير بها، فلا تبدِّل فيها معنًى، ولا تغير حكمًا، وإلا كيف يقال إنها تصدق. إلخ، بينما هي تُبدِّل وتُعدِّل، وإذا كان من قضية التصادق الكلي بين الكتب ألا يغيِّر المتأخر منها شيئًا من المتقدم، فهل الواقع هو ذلك؟

الجواب: ليس الواقع ذلك، فقد جاء الإنجيل بتعديل بعض أحكام التوراة، إذ أعلن عيسى عليه السلام أنه جاء لِيُحِل لبني إسرائيل بعض الذي حُرم عليهم: ﴿وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ﴾[آل عمران: ٥٠].

وكذلك جاء القرآن بتعديل بعض أحكام الإنجيل والتوراة؛ إذ أعلن أن محمدًا صلى الله عليه وسلم جاء لِيُحِلَّ للناس كلَّ الطيبات، ويُحرِّم عليهم

كلَّ الخبائث، ويضع عنهم إصْرَهم[1] والأغلال التي كانت عليهم: ﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِي يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِيٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾[الأعراف: ١٥٧].

ولكن يجب أن يفهم أن هذا وذاك لم يكن من المتأخر نقضًا للمتقدم، ولا إنكارًا لحكمة أحكامه في إبَّانها، وإنما كان وقوفًا بها عند وقتها المناسب، وأجَلِها المقدَّر. ومَثَلُ ذلك مِثْل ثلاثة من الأطباء جاء أحدهم إلى الطفل في الطور الأول من حياته فقرَّر قَصْرَ غذائه على اللبن، وجاء الآخر إلى الطفل في مرحلته التالية فقرر له طعامًا لبنًا وطعامًا نشويًّا خفيفًا، وجاء الثالث في المرحلة التي بعدها، فأذن له بغذاء قوي كامل.

لا ريب أن ها هنا اعترافًا ضمنيًّا من كل واحد منهم بأن صاحبه كان موفقًا كل التوفيق في علاج الحالة التي عرضت عليه. نعم إن

(١) الإصر: العهد، ومعنى الكلام: ويضع النبي الأمي العهد الذي كان الله أخذه على بني إسرائيل من إقامة التوراة والعمل بما فيها من الأعمال الشديدة، كقطع الجلد من البول، وتحريم الغناء، ونحو ذلك من الأعمال التي كانت عليهم مفروضة، فنسخها حكمُ القرآن. انظر تفسير الطبري ١٠/ ٤٩٦ (ط. هجر).

هناك قواعد صحيحة عامة في النظافة والتهوية والتدفئة، ونحوها، لا تختلف باختلاف الأسنان، فهذا لا تعديل فيه ولا تبديل، ولا يختلف فيه طب الأطفال والناشئين عن طبِّ الكُهول الناضجين.

هكذا الشرائع السماوية كلها صدْقٌ وعدْلٌ في جملتها وتفصيلها، وكلها يصدِّق بعضها بعضًا من ألِفها إلى يائها، ولكن هذا التصديق في ضربين: تصديق القديم مع الإذن ببقائه واستمراره، وتصديق له مع إبقائه في حدود ظروفه الماضية، ذلك أن الشرائع السماوية تحتوي على نوعين من التشريعات: (تشريعات خالدة) لا تتبدَّل بتبدُّل الأصقاع[1] والأوضاع (كالوصايا التسع)[2] ونحوها، فإذا فرض أن أهل شريعة سابقة تناسوا هذا الضرب من التشريع، جاءت الشريعة اللاحقة بمثله، أي أعادت مضمونه تذكيرًا، وتأكيدًا له. (وتشريعات موقوته) بآجال طويلة أو قصيرة، فهذه تنتهي بانتهاء وقتها، وتجيء الشِّرْعة[3] التالية بما هو أوفق بالأوضاع الناشئة الطارئة، وهذا - والله أعلم - هو تأويل قوله تعالى: ﴿مَا نَنسَخۡ مِنۡ ءَايَةٍ أَوۡ نُنسِهَا نَأۡتِ بِخَيۡرٖ مِّنۡهَآ أَوۡ مِثۡلِهَآۗ﴾[البقرة:١٠٦].

---

(١) جمع صُقع، وهو المكان أو الناحية. تهذيب اللغة (ص.ق.ع) ١/ ١٢٤.
(٢) هذه الوصايا وردت في آخر سورة الأنعام الآيات من ١٥١ -١٥٣، وقد وردت نظير هذه الوصايا في التوراة (العهد القديم)، في سفر الخروج، وفي سفر التثنية، وهذه الوصايا – بحسب بني إسرائيل – هي الذي كتب في الألواح.
(٣) الشرعة: شريعة الله التي هي الدين. انظر المصباح المنير (ش.ر.ع)٣١٠، شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم لنشوان الحميري ٦/ ٣٤١٦.

ولولا اشتمال الشريعة السماوية على هذين النوعين ما اجتمع فيها العنصران الضروريان لسعادة المجتمع البشري: عنصر الاستمرار الذي يربط حاضر البشرية بماضيها، وعنصر الإنشاء والتجديد، الذي يعد الحاضر للتطور والرقيِّ اتجاهًا إلى مستقبل أفضل وأكمل.

ونحن إذا نظرنا نظرةً فاحصة إلى سير التشريع السماوي من خلال الشرائع الثلاث، نجد فيها هذين العنصرين واضحين كل الوضوح؛ إذ نجد كل شريعة جديدة تحافظ على الأسس الثابتة التي أرستها الشريعة السابقة، ثم تزيد عليها ما يشاء الله زيادته.

نرى شريعة التوراة مثلًا قد عُنيت بوضع المبادئ الأولية لقانون السلوك: «لا تقتل»، و«لا تسرق». إلخ، ونرى الطابع البارز فيها هو طابع تحديد الحقوق وطلب العدل والمساواة بينها. ثم نرى شريعة الإنجيل تجيء بعدها فتقرر هذه المبادئ الأخلاقية وتؤكدها، ثم ترقى فتزيد عليها آدابًا مكملة: «لا تُراءِ الناس بفعل الخير، أحسِن إلى من أساء إليك»، ونرى الطابع البارز فيها التسامح والرحمة والإيثار والإحسان .وأخيرًا تجيء شريعة القرآن فتراها تقرر المبدأين كليهما في نسق واحد: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأۡمُرُ بِٱلۡعَدۡلِ وَٱلۡإِحۡسَٰنِ﴾ [النحل: ٩٠]، مقدِّرة لكل منهما درجته في ميزان القِيم الأدبية، مميزة بين المفضول منهما والفاضل: ﴿وَجَزَٰٓؤُاْ سَيِّئَةٖ سَيِّئَةٞ مِّثۡلُهَاۖ فَمَنۡ عَفَا وَأَصۡلَحَ فَأَجۡرُهُۥ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الشورى: ٤٠].

ثم نراها قد أضافت إليهما فُصولًا جديدة صاغت فيها قانون آداب اللِّياقة، ورسمت بها مناهج السلوك الكريم في المجتمعات الرفيعة في التحية والاستئذان، والمجالسَة والمخاطَبة إلى غير ذلك. كما نرى في سُور: النور والحجرات والمجادلة.

هذا مثال من أمثلة الجمع في سير التشريعات السماوية بين عنصر المحافظة على القديم الصالح، وعنصر الأخذ بالجديد الأصلح، والأمثلة كثيرة لا يتسع لها نطاق هذا البحث.

هكذا الشرائع السماوية خُطواتٌ متصاعدة، ولَبِناتٌ متراكمة في بنيان الدين والأخلاق وسياسة المجتمع، وكانت مهمة اللَّبنة الأخيرة منها أنها أكملت البنيان وملأت ما بقي فيه من فراغ، وأنها في الوقت نفسه كانت بمثابة حَجر الزاوية الذي يُمسك أركان البناء. وصدق الله في وصف خاتم أنبيائه بأنه: ﴿جَآءَ بِٱلْحَقِّ وَصَدَّقَ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾

[الصافات:٣٧].

وحين وصف اليوم الأخير من أيامه بأنه كان إتمامًا للنعمة وإكمالًا للدين: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِى﴾

[المائدة: ٣].

وصدق رسول الله ﷺ حين صور الرسالات السماوية في جملتها أحسن تصوير إذ قال: «مَثَلي ومَثَلُ الأنبياء من قبلي كمثَل رجلٍ

بنى بيتًا فأحسنه وأجملَه إلا موضع لبنةٍ، فجعل الناس يطوفون به ويَعْجَبون له ويقولون: هلَّا وُضِعت هذه اللبنة، فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين»[١]، إنها سياسة حكيمة رسمتها يد العناية الإلهية، لتربية البشرية تربيةً تدريجية لا طَفْرةَ فيها ولا ثَغْرةَ، ولا تَوقُّفَ فيها ولا رَجْعةَ، ولا تناقضَ ولا تعارضَ، بل تضافُرٌ وتعانُقٌ، وثباتٌ واستقرارٌ، ثم نموٌّ وكمال وازدهار.

وننتقل الآن إلى المرحلة الثانية: في بحث العلاقة بين الشريعة المحمدية والشرائع السماوية، بعد أن طال الأمد على هذه الشرائع، فنالها شيء من التطور والتحرر.

رأينا في المرحلة السابقة كيف كان القرآن يعلن عن نفسه أنه جاء مصدقًا لما بين يديه من الكتب، ونرى الآن أن القرآن أضاف إلى هذه الصفة صفة أخرى، إذ أعلن أنه جاء أيضًا (مهيمنًا) على تلك الكتب: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ فَٱحْكُم بَيْنَهُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ ٱلْحَقِّ ۚ لِكُلٍّ جَعَلْنَا مِنكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۖ فَٱسْتَبِقُوا۟ ٱلْخَيْرَٰتِ ۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾ [المائدة:٤٨]، أي حارسًا أمينًا عليها، ومن قضية الحراسة الأمينة

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٤/ ٢٢٦ (٣٥٣٤،٣٥٣٥)، ومسلم في صحيحه ٤/ ١٧٩٠ (٢١،٢٢-٢٢٨٦)، كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

على تلك الكتب ألا يكتفي الحارس بتأييد ما خلَّده التاريخ فيها من حق وخير، بل عليه فوق ذلك أن يحميهَا من الدَّخيل الذي عساه أن يُضاف إليها بغير حق، وأن يبرز ما تمسُّ إليه الحاجة من الحقائق التي عساها أن تكون قد أخفيت منها.

وهكذا كان من مهَمَّة القرآن أن ينفي عنها الزوائد، وأن يتحدى من يدعي وجودها في تلك الكتب: ﴿قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣].

كما كان من مهمَّته أن يبين ما ينبغي تبيينُه مما كتموه منها: ﴿يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِّمَّا كُنتُمْ تُخْفُونَ مِنَ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [المائدة: ١٥].

وجملة القول: إن علاقة الإسلام بالديانات السماوية في صورتها المنظورة، علاقة تصديق لما بقي من أجزائها الأصلية، وتصحيح لما طرأ عليه من البدع والإضافات الغريبة عنها.

هذا الطابع الذي تتَّسم به العقيدة الإسلامية، وهو طابع الإنصاف والتبصير الذي يقتضي ألا يقبل كل مسلم جُزافًا، ولا ينكرَ جُزافًا، وأن يَصْدُر دائمًا عن بصيرة وبيِّنة في قبوله وردِّه، ليس خاصًّا بموقفها من الديانات السماوية، بل هو شأنها أمام كل رأي وعقيدة، وكل شريعة وملَّة، حتى الديانات الوثنية نرى القرآن يُحلِّلها ويفصِّلها،

فيستبقي ما فيها من عناصر الخير والحق والسُّنة الصالحة، وُينِّحي ما فيها من عناصر الباطل والشر والبدعة.

أما بعد فهذا موقف الإسلام من الديانات الأخرى من الوجهة النظرية، وقد بقي أن نبحث عن موقفه من الوجهة العملية: هل يقف منها موقف السكوت عليها والإغضاء عنها اكتفاءً بالأمر الواقع؟

أم هل يقف موقف المحارب المقاتل الذي لا يهدأ له بالٌ حتى يطهر الأرض منها ومن أهلها؟

قليل من الكتاب الغربيين يُجيبنا بالشِّقِّ الأول، حتى قال قائل منهم (جوتييه في كتاب أخلاق المسلمين وعوائدهم): إن المسلم أناني، وإن الإسلام يشجعه على هذه الأنانية، فالمسلم لا يعنيه: ضلَّ غيره أم اهتدى، سعِد أم شَقِي، ذهَب إلى الجنة أم إلى السعير.

وأكثر الكاتبين يجيبنا بالشق الثاني، فالإسلام في نظر هؤلاء يريد أن يفرض نفسه على الناس بحد السيف، والقرآن في نظرهم يأمر المسلم بأن يضرب عنق الكافر أينما لقيه.

والواقع أن كلا الفريقين لم يُصِبْ كَبِدَ الحقيقة في تصوُّره لموقف الإسلام.

ليس الإسلام فاترًا ولا منطويًا على نفسه كما زعم الأقلُّون، فالدعوة إلى الحق والخير ركن أصيل من أركان الإسلام، والنشاط في

هذه الدعوة فريضة مستمرة في كل زمان ومكان، يأمر الله نبيَّه بتبليغ كلامه، وبأن يبذل جهده في هذا التبليغ: ﴿وَجَٰهِدۡهُم بِهِۦ جِهَادٗا كَبِيرٗا﴾ [الفرقان: ٥٢].

والقرآن يحرِّض المؤمنين على هذه الدعوة: ﴿وَمَنۡ أَحۡسَنُ قَوۡلٗا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحٗا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلۡمُسۡلِمِينَ﴾

[فصلت: ٣٣].

بل يجعل الفلاح والنجاة وقفًا على هؤلاء الدعاة: ﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٤].

ولكن الإسلام في الوقت نفسه ليس كما يزعم الأكثرون، عنيفًا ولا متعطشًا للدماء، وليس من أهدافه أن يفرض نفسه على الناس فرضًا حتى يكون هو الديانةَ العالمية الوحيدة، فنبيُّ الإسلام ﷺ هو أول من يعرف أن كل محاولة لفرض ديانة عالمية وحيدة هي محاولة فاشلة، بل هي مقاومة لسنة الوجود، ومعانَدة لإرادة رب الوجود: ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخۡتَلِفِينَ﴾

[هود: ١١٨].

ومن هنا نشأت القاعدة الإسلامية المحْكَمة المبرَمة في القرآن؛ قاعدة حرية العقيدة: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾ [البقرة: ٢٥٦].

ومن هنا رسم القرآن أسلوب الدعوة ومنهاجها فجعلها دعوة بالحجة والنصيحة في رفق ولين: ﴿ ٱدۡعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلۡحِكۡمَةِ وَٱلۡمَوۡعِظَةِ ٱلۡحَسَنَةِۖ وَجَٰدِلۡهُم بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُۚ ﴾ [النحل: ١٢٥].

على أن الإسلام لا يكتفي منها بهذا الموقف السلمي السلبي، وهو عدم إكراه الناس على الدخول فيه، بل يتقدم بنا إلى الأمام فيرسم لنا خطوات إيجابية نكرِّم بها الإنسانية في شخص غير المسلمين.

هل ترى أسمى وأنبل من تلك الوصية الذهبية التي يوصينا بها القرآن في معاملة الوثنية التي هي أبعد الديانات عن الإسلام، فضلًا عن الديانات التي تربطنا بها أواصر الوحي السماوي؟ اقرأ في سورة التوبة: ﴿ وَإِنۡ أَحَدٞ مِّنَ ٱلۡمُشۡرِكِينَ ٱسۡتَجَارَكَ فَأَجِرۡهُ حَتَّىٰ يَسۡمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبۡلِغۡهُ مَأۡمَنَهُۥۚ ﴾[التوبة: ٦].

فأنت تراه لا يكتفي منا بأن نجير هؤلاء المشركين ونؤويهم ونكفُل لهم الأمن في جوارنا فحسب، ولا يكتفي منا بأن نرشدهم إلى الحق ونهديهم طريق الخير وكفى، بل يأمرنا بأن نكفل لهم كذلك الحماية والرعاية في انتقالهم، حتى يصلوا إلى المكان الذي يأمنون فيه كل غائلة.

ثم هل نرى أعدل وأرحم، وأحرص على وحدة الأمة وتماسكها من تلك القاعدة الإسلامية، التي لا تكتفي بأن تكفل لغير المسلمين

في بلاد الإسلام حرية عقائدهم وعوائدهم، وحماية أشخاصهم وأموالهم وأعراضهم، بل تمنحهم من الحرية والحماية، ومن العدل والرحمة قدْرَ ما تمنحه للمسلمين من حقوق العامة: «لهم ما لنا وعليهم ما علينا»(١).

ثم هل ترى أوسع أفقًا، وأرحب صدرًا، وأسبق إلى الكرم، وأقرب إلى تحقيق السلام الدولي والتعايش السِّلمي بين الأمم، من تلك الدعوة القرآنية التي لا تكتفي في تحديد العلاقة بين الأمم الإسلامية وبين الأمم التي لا تَدين بدينها، ولا تتحاكم إلى قوانينها، لا تكتفي في تحديد هذه العلاقة بأن تجعلها مبادلَة سِلْمٍ بسِلْمٍ: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا﴾[الأنفال:٦١].

بل تندب المسلمين أن يكون موقفهم من غير المسلمين موقفَ رحمة وبر وعدل، وقسط: ﴿لَّا يَنۡهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمۡ يُقَٰتِلُوكُمۡ فِي ٱلدِّينِ وَلَمۡ يُخۡرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمۡ أَن تَبَرُّوهُمۡ وَتُقۡسِطُوٓاْ إِلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾

[الممتحنة:٨].

ليس هذا هو كل شيء في تحديد الموقف الإنساني النبيل الذي يقفه الإسلام عمليًّا من غير أتباعه، ولضيق المقام نكتفي بكلمة واحدة.

((١)) انظر ما أخرجه أبو داود في سننه ٣/ ٤٤(٢٦٤١)، والترمذي في سننه ٥/ ٤ (٢٦٠٨)، والنسائي في سننه ٧/ ٦٧(٣٩٦٧،٣٩٦٨)، ٨/ ١٠٩(٥٠٠٣)، وفي سننه الكبرى ٣/ ٤٠٩ (٣٤١٥)، كلهم من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، وما أخرجه النسائي في السنن الكبرى ٨/ ٥٥ (٨٦٢٧) من حديث بُرَيدة رضي الله عنه.

إن الإسلام لا يكُفُّ لحظةً واحدةً عن مدِّ يدِه لمصافحة أتباع كل ملة ونِحْلة في سبيل التعاون على إقامة العدل، ونشر الأمن وصيانة الدماء أن تسفك، وحماية الحُرمات أن تُنتَهك، ولو على شروط يبدو فيها بعض الإجحاف. ناهيك بالمثل الرائع الذي ضربه لنا رسول الله ﷺ في هذا المعنى حين قال في الحديبية: «والذي نفسي بيده لا يسألوني خُطةً يعظِّمون فيها حرمات الله إلا أعطيتُهم إياها»[(١)].

هذا هو مبدأ التعاون العالمي على السلام يقرِّره نبيُّ الإسلام ورسول السلام ﷺ.

* * *

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/ ٢٥٢،٢٥٣ (٢٧٣١،٢٧٣٢) من حديث المِسْوَر بن مَخْرَمة رضي الله عنه.

الإســلام وثقافـة الســلام

أ.د/ محمود حمدي زقزوق (*)

عضو هيئة كبار العلماء ووزير الأوقاف الأسبق

لا شك أن مفهوم السلام من المفاهيم المحبَّبة إلى النفس البشرية؛ فكل إنسان في هذا العالم يتطلع إلى السلام، سواء كان ذلك على المستوى الشخصي أم على المستوى العام، ولكن كل إنسان يسعى إلى تحقيق ذلك بطريقته الخاصة وفهمه الخاص، نظرًا لعدم وجود ثقافة حقيقية مشتركة للسلام بين الأمم والشعوب.

وقد يكون العنصر المؤثر في نفوس الناس وضمائرهم نحو السعي إلى السلام هو الدين، بالمعنى المطلق لمصطلح «الدين»، سماويًّا كان هذا الدين أم غير سماوي، ولكن كثيرًا من الناس على الرغم من ذلك يخطئون الطريق، وذلك أيضًا لغياب ثقافة مشتركة للسلام.

وإذا كنا جئنا إلى هنا لنتحاور حول ثقافة السلام من وجهة النظر الإسلامية والمسيحية ـ وهذا أمر ضروري ومطلوب بإلْحاح في ظل الظروف التي يعيشها عالمنا المعاصر ـ فإن من الضروري أيضًا أن تكون هناك ثقة متبادلة واحترام متبادل بين الطرفين.

(*) مجلة الأزهر، عدد شهر صفر ١٤٣٨هـ م / أكتوبر ٢٠١٦م، الجزء (٢).

ومن هنا فإننا إذا أردنا أن نتحدث عن ثقافة السلام فإن نجاح ذلك يتوقف على ضرورة توفر المناخ المناسب للحوار، وهذا يتطلب منا أن يراجع كل منا تصوراتِه عن دين الطرف الآخر وعقيدته، ويستبعد منها أية تصورات سلبية حتى يتيح للأجيال الجديدة ـ التي لم يكن لها ذنب في المآسي والحروب السابقة ـ أن تتسلح بالأمل في غدٍ مشرق بعيد عن مآسي الماضي وعداواته، غدٍ يتسلح بثقافة السلام الحقيقية لهذا العالم الذي هو عالمنا جميعًا، وعلى الذين يتحملون المسئولية الدينية في الإسلام والمسيحية؛ مسئولية غرس ثقافة السلام في نفوس وعقول الأجيال الجديدة.

التصور الإسلامي للسلام:

وإذا كان علينا أن نعرض التصور الإسلامي للسلام فإننا بإيجاز شديد يمكن أن نلخص ذلك في صورة ثلاث دوائر متداخلة. أما الدائرة الأولى فإنها تتمثل في السلام النفسي الذي يتمنى كلُّ إنسان أن يحققَه في داخله، وهذا السلام النفسي يكون ممكنًا عن طريق الدائرة الثانية وهي، السلام مع الله، كما يتمثل ذلك في العقيدة الدينية، وكلتا الدائرتين تجعلان الدائرة الثالثة ممكنة، وهي التي تتمثل في السلام مع الآخرين ومع العالم الذي يحيط بنا.

والعقيدة الدينية في الإسلام من شأنها أن تهيئ للإنسان المناخ الذي يستطيع فيه أن يتواءم مع نفسه ومع العالم الذي يعيش فيه.

فالإسلام في حقيقته يعني إسلام المرء وجْهَه إلى الله، وبهذا التوجه يكون المسلم قادرًا على أن يسلك الطريق إلى تحمل مسئولياته وأداء واجبه الحقيقي، والعقيدة الدينية تجعله واثقًا من العون الإلهي، ومن هنا يكون قادرًا على تذليل الصعاب والتغلب على كل العقبات، الأمر الذي يؤدي في النهاية إلى صنع السلام.

ويمكن القول في ضوء ذلك كله إن السلام طبقًا للتصور الإسلامي يعد عملًا من أعمال الإنسان، وفي الوقت نفسه يُعد نعمة من نعم الله على البشر، وقد وصف الله نفسه في القرآن الكريم بأنه «السلام»، والمصطلح العربي لـ«السلام» مشتق من الأصل ذاته الذي اشتق منه لفظ الإسلام، فهناك تطابق تام بين الإسلام والسلام، وتحية المسلمين فيما بينهم - كما هو معروف - هي: السلام؛ كما أن المسلمين يتَّجهون في نهاية كل صلاة من الصلوات الخمس اليومية بالتحية نفسها يمينًا وشمالًا، الأمر الذي يرمز إلى نصف العالم يمينًا ونصفه الآخر شمالًا، ويعبر ذلك عن أمنية المسلمين بالسلام للعالم كله.

الاختلاف ليس مسوِّغًا للنزاع والشقاق:

وإذا كان الله قد خلق الناس مختلفين في ألوانهم وأشكالهم ولغاتهم وأجناسهم، فليس معنى ذلك أن يكون هذا الاختلاف منطلقًا للنزاع والشِّقاق بين الأمم والشعوب، وإنما الأمر على العكس من ذلك تمامًا؛ فالإسلام يجعل من هذا الاختلاف منطلقًا للتعارف والتآلف

والتعاون في كل ما من شأنه أن يعود بالخير على الجميع؛ وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا﴾ [الحجرات: ١٣]، فالناس جميعًا متساوون، لا فرق بين إنسان وآخر إلا بما يقدمه من خير لأخيه الإنسان وللمجتمع الإنساني بصفة عامة.

ولا يجوز بأي حال من الأحوال أن يكون الاختلاف في العقيدة الدينية ـ أيضًا ـ سببًا من أسباب الشِّقاق والنزاع، فالأديان في جوهرها مَنْبَعُها هو الرُّوح الإلهي الذي وكَل به الله تعالى خلْق الإنسان، كما أخبرنا بذلك القرآن الكريم؛ فقد أمر الله تعالى الملائكة أن يسجدوا لآدم عند إكمال خلقه في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩].

ومن هنا كانت مسئولية الأديان هي تقوية هذه الصلة الرُّوحية بين الله والإنسان، فإذا تحمل الإنسان مسئوليته في دعم وتقوية هذه الصلة بالله الذي هو نفسه «السلام»، فإن ذلك سينعكس بالإيجاب على سلوكه وعلاقاته مع غيره أفرادًا وجماعات أو شعوبًا وقبائل، فالكل صدر عن الله في البداية، والكل صائر إليه في النهاية.

وإقامة السلام في هذا العالم تحقيق لمشيئة الله، وتلك مسئولية القائمين على الأديان في هذا العالم، وإذا لم نفعل فنحن لسنا فقط مقصِّرين في حق الأديان، وإنما نكون قد تخلَّيْنا عن مسئوليتنا نحو الله ونحو العالم الذي نعيش فيه والذي هو عالمنا جميعًا.

مسئولية نشر ثقافة السلام:

ومن هنا فإن علينا مسئولية كبرى في نشر ثقافة السلام في كل مكان في العالم، ليس فقط بين أتباع هذا الدين أو ذاك، وإنما في كل مكان في العالم يمكن أن نصل إليه دون أن نستثنيَ أحدًا.

وهناك في عالمنا المعاصر وسائل عديدة يمكن أن تساعد في نشر ثقافة السلام في العالم، وأهمُّ هذه الوسائل المنتشرة على نطاق واسع الإعلام، المسموع والمقروء والمرئي، ومن الضروري في هذا الصدد أن تصل رسالة السلام إلى المدارس والجامعات، وأن تكون عنصرًا ضروريًّا في تربية الأجيال الجديدة من أجل خلق أجيال تؤمن بفكرة السلام، وما يمكن أن تحقِّقه من ثمار للفرد والمجتمع والأمم والشعوب، فالسعادة التي يتطلع إليها الجميع لن تتحقق دون السلام في حياة الأفراد والجماعات، وإن ما يعانيه عالمنا المعاصر من نزاعات وصراعات وحروب، لا يمكن أن يؤدي إلا إلى الخراب والدمار، والإنسان الذي لا يتعلم من دروس التاريخ لا خير فيه لا لنفسه، ولا للمجتمع الذي يعيش فيه.

وإذا كنا ندعو إلى ثقافة السلام فمن الضروري أيضًا التذكير بما تخلِّفه الحروب والنزاعات بين الأمم والشعوب من مآسٍ وكوارث رهيبة، وفي هذا الصدد نذكر بما شهدته أوروبا في النصف الأول من

القرن الماضي، وهذا تاريخ عاصره البعض ممن لا يزالون يعيشون بيننا حتى الآن، وراح ضحية الحروب التي شهدتها أوروبا من عام ١٩١٤م حتى نهاية الحرب العالمية الثانية عام ١٩٤٥م، أكثر من ستين مليونًا من البشر، فهل نريد لعالمنا المعاصر أن يكرر هذه المآسي والكوارث في القرن الحادي والعشرين؟

عقبات في طريق تحقيق السلام:

ولا يجوز لنا أن نتجاهل أن هناك عقباتٍ كثيرة في سبيل تحقيق السلام في العالم، فالوصول إلى هدف السلام لا يمكن أن يتحقق إلا عن طريق القضاء على أسباب الصراعات والنزاعات في العالم، ولا يمكن إقناع الأمم والشعوب بقيمة السلام إلا بإقامة موازين العدل بين الجميع، فالمعايير المزدوجة والكيل بمكيالين ظلم بيِّنٌ وخطأ فاحش، فكيف أقنِع مظلومًا بقيمة السلام وهو يتعرض بصفة شبه يومية للظلم والاضطهاد؟ والأمثلة على ذلك كثيرة، وأقربُها إلينا ما يتعرض له شعب فلسطين منذ سبعين عامًا دون أي أمل في رؤية بَصيصٍ من نور يقرِّبه من السلام، إن تحقيق العدالة يُعد أقصر الطرق إلى السلام.

ضرورة الاستمرار في نشر ثقافة السلام:

وإذا كان تحقيق العدالة يعد مطلبًا بعيد المنال ـ حتى الآن ـ فإن ذلك لا يجوز أن يثنينا عن الاستمرار في بذل جهود مضاعَفة،

والمطالبة بكل ما نستطيع من قوة بإقامة موازين العدل في كل مكان في العالم من أجل تحقيق السلام المنشود، فالسلام قيمة كبرى لا يجوز التلاعب بها، ونشر ثقافة السلام في مختلف مناطق العالم يمكن أن يمثل حصانة قوية ضد أية محاولة لتعكير صفو السلام في العالم، ولن يسامحنا الله - الذي نصلي له في مساجدنا وكنائسنا - إذا لم نقف صفًّا واحدًا لمواجهة أي عدوان على السلام الذي يجب أن تنعم به البشرية في كل أرجاء العالم الذي هو عالمنا جميعًا.

قيم مشتركة:

إن علينا أن نعلم الأجيال الجديدة أن قيمة المحبة التي هي شعار المسيحية يقابلها في الإسلام قيمة الرحمة، والمحبة والرحمة وجهان لعملة واحدة، وعلينا أن ننحي جانبًا أية خلافات عقائدية بين المسيحية والإسلام، ونوقظ في النفوس القيم المشتركة التي لا خلاف عليها، والقرآن الكريم يضع أمامنا القاعدة المشتركة التي تمثل الأساس المتين للتعاون فيما بيننا من أجل الوصول إلى الأهداف المشتركة؛ وتتمثل هذه القاعدة في آية قرآنية تقول: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْأَخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[البقرة : ٦٢].

فالمبادئ المشتركة التي تمثل القاعدة الصلبة للتعاون بين المسيحية والإسلام هي: الإيمان بالله، والإيمان بالآخرة، والعمل الصالح، وأعتقد أنه لا خلاف بين المسلمين والمسيحيين حول هذه المبادئ المقررة في الدينين؛ فهذه المبادئ تمثل قاعدة للتعاون بينهما من ناحية، كما تمثل في الوقت نفسه هدفًا مشتركًا يجب أن تتجه جهودنا جميعًا إلى تحقيقه من ناحية أخرى، ولكن ينبغي ألا يظن أحد أنني بذلك أدعو إلى تذويب جميع الفوارق أو الخصائص التي يتميز بها كل دين، وإنما أركِّز فقط على الأسس والمبادئ والمنطلقات التي تمثل إطارًا رحبًا للتعاون بين المسيحية والإسلام.

❊ ❊ ❊

الإسلام وهرم الأولويات المقلوب

أ.د/ محمود حمدي زقزوق [١]

كثيرًا ما نتحدث عن الإساءة إلى الإسلام من جانب غير المسلمين، وننسى في غمرة ردود الأفعال الغاضبة إزاء هذه الإساءات أن الإسلام يتعرض لإساءات أشد وأقسى من بعض من ينتسبون إليه. ولا يقلل من خطر هذه الإساءات ما قد يصاحبها من حسن النوايا. ومنذ أكثر من ثمانية قرون عبَّر الفيلسوف العظيم ابن رشد (ت ٥٩٥ هـ) عما يشعر به من الحزن والألم بسبب ما تخلل الشريعة الإسلامية من الأهواء الفاسدة والاعتقادات المحرفة التي أدخلها عليها (الأصدقاء الجهال).

وعلى الرغم من مرور هذه القرون الكثيرة على شكوى ابن رشد فإن الأمر في عصرنا لا يختلف كثيرًا؛ فقد أُدخلت على الدين أفهام فاسدة أساءت إليه أكثر من إساءة خصومه إليه. ولكن الإساءات المعاصرة قد ازدادت حدتها وتنوعت مصادرها وأُتيح لها الانتشار السريع على نطاق واسع عبر الفضائيات، بفضل الثورة التكنولوجية الحديثة.

---

(١) مجلة الأزهر، عدد شهر ربيع الأول ١٤٣٨هـ/ ديسمبر ٢٠١٦م، الجزء (٣).

ويمكن إرجاع الإساءات المعاصرة إلى الإسلام من جانب بعض من ينتسبون إليه، إلى جهل فاضح بتعاليم الدين من ناحية، وإلى محاولات توظيف الدين لخدمة أغراض سياسية أو أطماع دنيوية من ناحية أخرى، الأمر الذي من شأنه أن يؤدي إلى الانحراف بالدين عن الطريق المستقيم الذي أشار إليه القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِي مُسۡتَقِيمٗا فَٱتَّبِعُوهُۖ وَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمۡ عَن سَبِيلِهِۦۚ﴾ [الأنعام:١٥٣].

إن الإسلام في جوهره دين العلم والعقل والحضارة، دين الجمال والذوق الرفيع، دين القيم العالية والفضائل السامية، دين البناء والتعمير والأمن والسلام، دين العدل والتراحم، والتعاون على كل ما من شأنه تقديم الخير لكل الناس في كل زمان ومكان.

ويخطئ (الأصدقاء الجهال) المعاصرون خطأً فاحشًا حين يقلبون هرم الأولويات الإسلامية رأسًا على عقب ويقدمون الإسلام للآخرين من خلال بعض المظاهر الشكلية، على أنه دين اللحية والجلباب والمسبحة، دين الدروشة الفارغة والجهل والخرافات والأوهام، ويختزلون هذا الدين العظيم في قطعة من القماش تغطي وجه المرأة وتلغي شخصيتها تمامًا.

ومنذ نحو خمسة عشر عامًا روت لي أستاذة مسلمة تعمل في جامعة جنيف أن إحدى الطالبات لديها قد أبدت رغبتها في اعتناق

الإسلام فأرسلتها إلى المركز الإسلامي هناك. وقد فوجئت الطالبة بأن الشيخ يطلب منها أن تتحجب أولًا قبل أن يقبل إعلانها الدخول في الإسلام، وهؤلاء وأمثالهم ينفرون الناس من الإسلام ويصدون عن سبيل الله.

لقد جاء الإسلام رحمة للعالمين، ونص القرآن على ذلك في وضوح تام في قوله تعالى - مخاطبًا نبيه ﷺ -: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧] .

والشدة والغلظة والتجهم واصطناع الجديد في عَرض الإسلام، لا مكان لها في تعاليم هذا الدين. ومن هنا امتَدح القرآن النبي ﷺ في قول الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحۡمَةٖ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمۡۖ وَلَوۡ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلۡقَلۡبِ لَٱنفَضُّواْ مِنۡ حَوۡلِكَۖ ﴾ [آل عمران: ١٥٩] .

وقد استخدم القرآن الكريم أسلوب التدرج في عرض الإسلام على الآخرين، وتحريم الخمر أوضح دليل على ذلك، فقد مر هذا التحريم بعدة مراحل. ففي المرحلة الأولى اهتم القرآن ببيان أن الخمر فيها منافع وفيها مضار، ولكن ضررها أكثر من نفعها، ثم كانت المرحلة الثانية في الطلب من المسلمين ألا يقربوا الصلاة وهم سكارى، ﴿ لَا تَقۡرَبُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنتُمۡ سُكَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَعۡلَمُواْ مَا تَقُولُونَ ﴾ [النساء:٤٣]، وبعد هذه التوعية التربوية بدأ المسلمون من تلقاء أنفسهم يبتعدون عن شرب الخمر، وهنا جاء التحريم النهائي في

قـــوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ﴾[المائدة: ٩٠] .

وهناك فريق آخر يقدم الإسلام للآخرين على أنه دين يدعو إلى إعلان الحرب على كل الناس حتى ينطقوا بالشهادة ويصبحوا مسلمين، مؤكدين بذلك مقولة خصوم الإسلام الذين يصفون الإسلام بأنه دين يدعو إلى العنف والإرهاب وسفك الدماء.

ويغيب عن فهم هؤلاء (الأصدقاء الجهال) أن القتال في الإسلام لم يشرع إلا لرد العدوان، فالحرب في الإسلام حرب دفاعية، ويؤكد ذلك القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠] .

وإذا كان الأصدقاء الجهال يدفعهم الجهل إلى ارتكاب مثل هذه الأخطاء في حق الإسلام، فإن هناك غيرهم من طلاب الشهرة يخرجون على الناس بين حين وآخر بآراء تطعن الإسلام في الصميم؛ ادعاءً منهم بأنهم مجددون.

والأمر الذي لا مراء فيه أن الإسلام في حاجة ماسة إلى مجددين من أمثال ابن رشد قديمًا ومحمد عبده حديثًا؛ ليزيلوا عن الإسلام ما تراكم عليه من غبار الجهل على مر السنين، ويكشفوا للناس عن

الجوهر الحقيقي للدين، ولكن الإسلام ليس في حاجة إلى أدعياء التجديد الذين ينقلون حرفيًّا ما سبق أن قاله بعض المستشرقين من مقولات مُتْحَفية عفا عليها الدهر، يتنزه عنها معظم المستشرقين المعاصرين الذين يحترمون أنفسهم ويحترمون العلم الذي ينتسبون إليه.

وقد أصبح التجديد المزعوم (موضة) العصر؛ فكل من يبتغي شهرة عليه أن يهاجم أصلًا من أصول الدين، وعندئذٍ سيتصدى له من يهاجمه ويتهمه بالكفر ويرفع ضده دعاوى حسبة، وفي المقابل سيتصدى للدفاع عنه فريق آخر باسم حرية الفكر. وهكذا يصل المجدد المزعوم إلى ما يريد من الشهرة الكاذبة.

إن الإسلام إذ يعلي من شأن العقل الإنساني فإنه يشجع حرية الفكر ويرفض التقليد الأعمى ولا يضيق ذرعًا بالاجتهادات التي قد تخطئ وقد تصيب، فالتفكير في كلتا الحالتين مطلوب، بل هو فريضة إسلامية كما عبر عن ذلك بحق الأستاذ العقاد، رحمه الله.

والأمر الذي لا شك فيه أن الثروة الفكرية والدينية في الإسلام في حاجة إلى مراجعة مستمرة وتنقية لما طرأ عليها من أهواء فاسدة واعتقادات محرفة - كما عبر عن ذلك الفيلسوف ابن رشد - كما أنها في حاجة إلى تجديد يُثْريها وينميها ويجدد حيويتها.

وهناك فرق بين التجديد المطلوب وبين التبديد لهذه الثروة، الذي يعني إهدارها والتعامل معها بسفهٍ؛ بغية القضاء عليها، فهل هي مصادفة أن يكون الفرق بين التجديد والتبديد هو الاختلاف في حرف واحد؟

وهل في ذلك إشارة ضمنية إلى أن التفرقة بينهما في حاجة إلى عقل رشيد يدرك الفروق الدقيقة بين الجانبين حتى لا يقع في محظور الخلط بينهما؟

إننا – في حقيقة الأمر – في حاجة إلى هذا العقل الرشيد ليعيد هرم الأولويات الإسلامية إلى وضعه الطبيعي من ناحية، ويحمي ثروتنا الدينية الأصيلة من الضياع والعبث من ناحية أخرى.

* * *

الدين للحياة

أ.د/ محمود حمدي زقزوق(*)

عضو هيئة كبار العلماء

التديُّن في جوهره سِرٌّ بين العبد وربه، لا يطَّلع عليه إلا الله الذي يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، وهناك كثير من الناس متدينون يحسبهم الجاهل المهتم بالمظاهر الشكلية بعيدين عن الدين؛ لأنهم يعيشون حياتهم على نحو عادي في ملبسهم ومطعمهم ومسكنهم، ولكنهم لا يؤذون أحدًا ومُلتزمون بواجباتهم الدينية دون إعلان.

ولكنَّ هناك فريقًا من الناس يعتبرون أنفسهم متدينين لتمسُّكهم الظاهر بأمور شكلية لا صلة لها بجوهر الدين، وحِرصِهم الشديد على أن يضفوا على أنفسهم جوًّا مظهريًّا يوحي بالتديُّن، والتشدُّد المُفرِط في صغائر الأمور الدينية هوايتهم المفضَّلة.

وهذا هو مبلغهُم من التدين الذي هو أمرٌ باطني لا صلة له بهذه المظاهر التي قد تكون خادعة في أحوال كثيرة. ونموذج شركات توظيف الأموال التي اتخذت من المظاهر الدينية ستارًا لأعمالها الاحتياليَّة للاستيلاء على أموال المواطنين، لا يزالُ حاضرًا في الأذهان.

(*) مجلة الأزهر، عدد شهر جمادى الآخرة ١٤٣٧هـ/ مارس - أبريل ٢٠١٦م، الجزء (٦).

ولو اقتصر الواحد من هؤلاء المتشددين على الاهتمام بنفسه وترك خلق الله يُكيِّفون حياتهم على النحو الذي يريدون، طالما أنهم لا يخرجون في تصرفاتهم عن جوهر الدين، لما كانت هناك مشكلة، ولكن المشكلة أن هؤلاء يريدون أن يَحملوا الآخرين على الاقتداء بهم في مظهرهم والانخراط في دائرتهم.

ولسنا ضد أن يشدِّد إنسان على نفسه على النحو الذي يريد، وأن يتعبَّد بالطريقة التي يعتقد أنها تُريح ضميره، لكن أن يدعو الآخرين إلى الاقتداء به في التشدد، ونَشرِ هذا التشدُّد بين الناس باسم الدين، فهذا هو الأمر المرفوض، ومن هنا رفض النبي ﷺ التشدد في الدين قائلا: «لا تُشدِّدوا على أنفسكم فيُشدَّد عليكم»[١]، «إِنَّ الدين يسر، ولن يشاد الدينَ أحدٌ إلا غلبه»[٢].

والإسلام في جوهره دين الوسطية والاعتدال، لا يطلب من أتباعه أن يعملوا للدنيا على حساب الآخرة، ولا للآخرة على حساب الدنيا، وفي ذلك يقول القرآن الكريم: ﴿وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا﴾[القصص:٧٧].

ومن المرويات في هذا الصدد أن ثلاثةً من الصحابة ذهبوا إلى بيت النبي ﷺ يسألون عن عبادته ليقتدوا بها يفعل، فلما حُكي لهم ما يفعله النبي ﷺ كأنهم تَقالُّوها، أي اعتبروها قليلة بالقياس إلى ما يفعلونه.

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ٤/ ٢٧٦ (٤٩٠٤) من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ١/ ١٦ (٣٩) من حديث أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

فقال أحدهم إنه يصلي الليل كله ولا يرقد، وقال الثاني: إنه يصوم ولا يفطر، وقال الثالث: إنه يعتزل النساء ولا يتزوج، وعندما سمع الرسول ﷺ مقالتهم خرج إليهم وقال: «والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصلي وأرقد، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سُنَّتي فليس مني»[(١)].

إن التدين الحقيقي - كما أشرنا - ليس رسومًا ولا أشكالًا ولا طقوسًا مظهرية، وإنما هو علاقة حميمة تربط بين الله والإنسان الذي لا ينظر إلى صورنا وأشكالنا ولكن ينظر إلى قلوبنا وأعمالنا، كما جاء في الحديث النبوي الشريف .

وهناك وجه آخر لهذا التشدد الممقوت يتمثل في الميل إلى الإفراط في تحريم مباهج الحياة التي يسميها القرآن: ﴿وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزۡقِۚ﴾ [الأعراف:٣٢].

لدرجة جعلت هؤلاء المتشددين يجعلون من الإسلام قائمة طويلة من المحرمات، وجعلت من الدين عدوًّا للحياة، فالتدين لدى هؤلاء صِنْوٌ للتجهُّم والكآبة، ورفض لكل ما يدخل السرور والبهجة على حياة الناس.

---

(١) متفق عليه، أخرجه البخاري في صحيحه ٧/ ٢ (٥٠٦٣)، ومسلم في صحيحه ٢/ ١٠٢٠ (٥-١٤٠١)، كلاهما من حديث أنس بن مالك.

فالموسيقى حرام والغناء حرام حتى لو كان في المدائح النبوية، واللهو البريء حرام، والتمثيل حرام حتى لو كان يحمل رسالة دينية أو أخلاقية أو اجتماعية، والنقاب للمرأة فرض لا يجوز أن يظهر منه إلا سواد عينيها وتتبارى بعض الفضائيات في هذا المجال، وقائمة المحرمات لا تنتهي بل يضيف إليها هؤلاء من عندياتهم كل يوم شيئًا جديدًا يضاف إلى هذه القائمة ، على الرغم من أن التحريم في الإسلام لا يكون إلا بنص صريح لا يقبل التأويل. ويرجع السبب في ذلك كله إلى ضيق الأفق ومحدودية الثقافة الدينية وقلة الفقه بالدين لدى هؤلاء العابثين بدين الله الذي لم يعطهم توكيلًا ليكونوا متحدثين رسميين باسم الدين، وليكونوا أوصياء على الآخرين يكفِّرون هذا ويحكمون بالفسق والابتداع على ذاك، ويعطون لأنفسهم الحق في الحكم بطرد هذا أو ذاك من رحمة الله.

إن الدين أرحم من هؤلاء بعباد الله، فرسالة الإسلام جاءت في الأساس رحمة للعالمين بنص القرآن في قوله تعالى مخاطبًا النبي ﷺ: ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾[الأنبياء:١٠٧].

والقرآن يفتح باب الأمل على مصراعيه أمام كل الناس في قوله تعالى: ﴿ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴾[الزمر:٥٣].

والتمتع بمباهج الحياة والطيبات من الرزق، من الأمور المقررة في الدين، وليس من حق أحد أيًّا كان أن يعطي لنفسه الحق في تحريم ما أحل الله، ومن أجل ذلك يستنكر القرآن صنيع هؤلاء الجاهلين وأمثالهم في قوله تعالى: ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِۚ قُلْ هِىَ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف:٣٢]، ويؤكد القرآن رفضه القاطع تحريم ما أحله الله لعباده من طيبات الحياة بقوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحَرِّمُواْ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓاْۚ ﴾ [المائدة: ٨٧]، وطيبات الحياة ومباهجها من نِعم الله على الإنسان التي تستحق الشكر عليها، وفي هذا المعني يقول الشيخ محمد الغزالي – رحمه الله –: «أنا رجل مسلم أحب الحياة، وأبتهج بطيِّباتها، إن الله استضافني في كونه وأطعمني خيره، فمن السَّفاهة أن أرفض الكرم المبذول ، ومن السفاهة كذلك أن أضِنَّ بِشُكْرِ المُنْعِم»[(١)].

والرسول ﷺ يقول: «إن الله يُحِبُ أن يرى أثر نعمته على عبده»[(٢)].

فمن حق كل إنسان أن يتمتع بما أحلَّه الله له في مَطْعَمه ومَلْبَسه ومَسْكَنه، ومن حقه الاستجمام من عناء العمل، والترويح عن النفس لطرد السآمة عن حياته، ومن هنا كان قول النبي عليه الصلاة

(١) مئة سؤال عن الإسلام للشيخ الغزالي، ص١٤٧، دار ثابت.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ٥/ ١٢٣ (٢٨١٩) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص. وحسَّنه الترمذي.

والسلام: «رَوِّحُوا القلوب ساعة فساعة»(١)، أي أريحوها باللَّهو المباح حتى تنشَط استعدادًا لاستئناف العمل من جديد، فالقلوب تُصاب بالمَلَـلِ والسَّأَم كما هو الشأنُ بالنسبة للأبدان كما ورد أيضًا عن الإمام علي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن القلوب إذا كَلَّتْ عَمِيَتْ، ومن أجل ذلك فإنها في حاجة ماسة إلى التَّرويح الذي يُزيل عنها ذلك الملل، ويبعث فيها الحيوية والنَّشاط من جديد حتى تُصبح قادرة على مُواصلة مسيرة الحياة «فإن المُنبَتَّ لا أرضًا قطَع ولا ظهرًا أبقى»(٢).

ويُروى عن الصحابي الجليل أبي الدَّرداء قوله: إني لأُجِمُّ فؤادي - أي أُرِيحُهُ - بشيءٍ من اللَّهو الجائز، لأَنشطَ للحق. وقد قُرِئَ عند النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قُرآنٌ وأُنشد شِعرٌ، فقيل يا رسول الله: أقُرآن وشِعْرٌ في مجلس؟ فقال النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «نعم، ساعة هذا وساعة ذاك»(٣).

وقد سمح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ للسيدة عائشة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، أن تشاهد الأحباش وهم يُؤدُّون بعض الألعاب في المسجد النبوي، وذات يوم دخل

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ أبو داود في المراسيل (٦٥٢) عن الزهري، والقضاعي في مسند الشهاب ١/ ٣٩٣ (٦٧٢)، وأخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ١٩/ ٣٤٤ (٣٦٢٦٣)، والمروذي في أخبار الشيوخ وأخلاقهم ١٩٠ (٣٤٦)، بلفظ «روحوا القلوب تع الذكر». ويشهد له ما أخرجه مسلم في صحيحه ٤/ ٢٠١٧ (١٣ - ٢٧٥٠). وانظر المداوي لعلل الجامع الصغير وشرحي المناوي، للسيد أحمد بن الصديق الغماري ٤/ ١٤٢.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٣/ ١٨ من حديث جابر بن عبد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٣) أخرجه الخطيب البغدادي في الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع ٢/ ١٣٠.

النبي على عائشة وكانت تزفُّ جارية يتيمة لديها لرجل من الأنصار، فلم يسمع شيئًا يوحي بالفرح الذي هو سِمَةُ مثل هذه المناسبات، فقال: «هلَّا بَعَثْتُم معها من يُغَنِّيهم يقول: أَتَيْنَاكم أَتَيْنَاكم فحيُّونا نُحييكم؛ فإن الأنصارَ قومٌ فِيهمْ غَزَل»، وفي رواية أخرى: «قوم يحبون الغِناء»(١).

إن الحياة ليست كلها جِدًّا وكَدًّا ونكدًا، وإنما هي أيضا مرحٌ وراحةٌ وترويحٌ عن النفس في إطار المعقول، ولقد استمع النبي ﷺ للشعر الذي يتضمن شيئًا من الغزل، فلم ينكر ذلك انطلاقًا من أن الإسلام لا يمكن أن يصادر العواطف والمشاعر الإنسانية الرقيقة.

ومن ذلك ما أنشده كعب بن زهير أمام النبي ﷺ من قصيدته التي أراد بها أن يَستعطف النبي ﷺ للعفو عنه، وجاء في مطلعها:

بانت سُعاد فقلبي
اليوم متبولُ
متيَّمٌ إثْرَها
لم يُجْزَ مَكْبُولُ

وكان عليه الصلاة والسلام بسَّامًا ضاحِكًا – كما تَروي عنه السيدة عائشة – وكان يمزح ولا يقول إلا حقًّا.

---

(١) أخرجه النسائي في السنن الكبرى ٥/ ٢٤١ (٥٥٤٠)، وابن ماجه ١/ ٦١٢ (١٩٠٠).

ولكن غِلاظَ القلوب ومتبلِّدي الإحساس يريدون أن يحملوا الناس على الاقتداء بهم وليْتَهم يقرءون قول الله لنبيه: ﴿وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّواْ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران :١٥٩].

إن الجهل آفة من الآفات التي تجعل صاحبها يُـنَـفِّرُ الناس من الدين، ويصدُّهم عن سبيل الله بما ينشره من غُثاء لا صلةَ له بالدين، وبدلًا من أن يستر الجاهلون جهْلَهُم يتبجَّحون به على الناس دون حياء، لا من الله ولا من رسوله ولا من المؤمنين.

وما يفعله هؤلاء هو التنطُّع بعينه، والمتنطِّعون هم المتشدِّدون المتقعِّرون(١) الذين يفسدون على الناس سماحةَ الدين ويُسره وبَساطته، ويدسُّون أُنوفَهم في كل صغيرة وكبيرة في حياة الناس، ويسدُّون أمامهم أبوابَ الأمل، ويضيِّقون عليهم رحمة الله الواسعة، وقد توعَّد النبي ﷺ هؤلاء المتنطِّعين بالهلاك في قوله: «هلك المُتنطِّعون»، وكرَّرها ثلاثًا(٢).

إن الله وحده هو المطَّلِعُ على القلوب، وهو وحده الذي سَيفصِلُ بين الناس يوم القيامة، وعلى هؤلاء المتنطعين أن يكفُّوا عن شَغْلِ المسلمين بصغائر الأمور في الوقت الذي يُصارعهم فيه الآخرون في عظائم الأمور وفي قضاياهم المصيرية.

---

(١) يقال تقعر في كلامه: إذا تَشدَّق وتكلَّم بأقصى فمه وتَصنَّع.

(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/ ٢٠٥٥ (٧ - ٢٦٧٠)، من حديث عبد الله بن مسعود.

وليس هناك من شك في أن التدهور في الفكر الديني والذي يتسبب فيه هؤلاء، من شأنه أن يصرِفَ المسلمين عن الاهتمام بأمور الدنيا التي خلقها الله لنا لنعمِّرها بالعلم ونبنِيها بالعمل، ونُثريَها بالخير وننشُرَ فيها الأمن والسلام والاستقرار، وعلى هؤلاء العابثين في وقت الجدِّ أن يفيقوا من غفوتهم، ويثوبوا إلى رُشدهم، ويعلموا أن الدين للحياة وليس عدوًّا للحياة كما يتصورون.

***

التنوع سنة الحياة

أ.د/ محمود حمدي زقزوق(*)

عضو هيئة كبار العلماء ووزير الأوقاف الأسبق

(التنوع سنة الحياة)، هذه حقيقة ماثلة أمام الجميع لا تخطئها عين ولا ينكرها عقل. فأينما يوجه المرء بصره أو يُجيل فكْرَه، يصادفه هذا التنوع في كل شيء في هذا الكون.

والأمثلة على ذلك لا تحصى ولا تعد. فالبشر شُعوبٌ متنوعة وأممٌ مختلفة الألوان والأعراق والعادات والأديان.

والتنوع واضح في تقلُّبات الجو بين صيف وخريف وشتاء وربيع، والليل والنهار يتعاقبان، والخير يوجد بجانب الشر، والنور بجانب الظلمة، والماء العذب بجانب الماء الملح، كما يشتمل الكون على تنوع؛ بين أرض وسماء، وكواكب ومَجَرَّاتٍ، وبحار وأنهار، وجبال وسهول ووديان.

ومن الكائنات الحية آلاف مؤلَّفة مختلفة الأنواع والأشكال. وكل ذلك يشكل منظومة متكاملة في غاية الإتقان والإبداع ﴿صُنْعَ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ أَتْقَنَ كُلَّ شَىْءٍ ۚ﴾ [النمل: ٨٨]. وهذا التنوع يَعُدُّه القرآن

(*) مجلة الأزهر، عدد شهر صفر ١٤٣٧هـ/ ديسمبر ٢٠١٥م، الجزء (٢).

الكريم من المعجزات الإلهية. ألا ترى الأرض تنبت لنا زروعًا مختلفة الأشكال والألوان والثمار مع أنها جميعًا تسقى بماء واحد؟ إنه لأمر مبهر يخلب الألباب والأبصار.

وبهذا التنوع في كل شيء أصبح للحياة معنى وقيمة، فنحن أمام مُتْحَف حي يعرض علينا لوحاتِه الباهرةَ التي تملأ قلوبنا بالبهجة وعقولنا باليقين بعظمة الله، وتنعش فينا الآمال، وتقتل في نفوسنا أسبابَ اليأس والإحباط.

فإذا انتقلنا من الكون الكبير بكل أطيافه وتنوعاته إلى الكون الصغير وهو الإنسان، فإننا نجد التنوع أوضح ما يكون. فلا يوجد اثنان في هذا الوجود يتفقان تمامًا في كل شيء، سواء من الناحية الجسمية أو النفسية أو العقلية حتى لو كانا توأمين، فلكل منهما شخصيته المستقلة وعواطفه وانفعالاته الخاصة وتفكيره المختلف.

وقد أعطانا الله رمزًا ماديًّا لذلك يتمثل في أنه لا يوجد اثنان في هذا الكون يتفقان في بصمة إبهامهما. وهذا التنوع بين البشر – في حد ذاته – ليس أمرًا سلبيًّا، ومن هنا وجدنا القرآن الكريم يشير إلى الاختلاف القائم بين الأمم والشعوب، ويجعل من ذلك منطلقًا للتعارف والتآلف والتعاون، وليس منطلقًا للنزاع والشقاق كما جاء في الآية الكريمة: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ﴾[الحجرات: ١٣]. وهذه سُنَّة الله في خلْقه، ولن تجد لسنة الله تبديلًا.

ومن طبيعة الإنسان أنه لا يستطيع أن يعيش وحده، فهو كائن اجتماعي يحتاج إلى الآخر بقدر احتياج الآخر إليه. فالآخر- إذًا - ضروري بالنسبة لنا وليس هو الجحيم، كما كان يرى الفيلسوف الوجودي سارتر. وعلى الرغم من الاختلافات الظاهرة والخفية بين البشر فإن جوهر الإنسان واحد في كل زمان ومكان، بصرف النظر عن الجنس واللون أو العقيدة. والسِّمة الجوهرية في الإنسان أنه كائن مفكِّر، وهذه صفة مشتركة بين كل البشر. ومن هنا عَرَّف الفلاسفة القدماء الإنسان بأنه «حيوان ناطق»، أي إنه كائن حي مفكر.

وإذا كان الناس متساوين في الجوهر فليس هناك - إذًا - فضل لإنسان على آخر إلا بما يقدمه من خير للناس وللمجتمع الذي يعيش فيه. والوعي بهذه الحقيقة من شأنه أن يُشيع بين الناس رُوحَ الأخوَّة الإنسانية والاحترام المتبادل. وحقيقة الأمر أن احترامنا للآخر هو في الوقت نفسه احترام لذواتنا. فالذي لا يحترم ذاته لا يحترم الآخرين.

وإذا كان ينبغي أن نحترم الآخر فإن هذا ينسحب - بطبيعة الحال - على احترام رأيه وفكره. واحترام رأي الآخر لا يعني بالضرورة القبول به، فهذه مسألة أخرى.

إن احترام رأي الآخر يعني احترام حق الآخر في التعبير عما يجول بفكره. واختلاف وجهات النظر وتنوع الاجتهادات ليس أمرًا سلبيًّا، وإنما هو أمر إيجابي من شأنه أن يثري الحياة وأن يضيف إليها.

والأمر السلبي هو التعصب للرأي والاعتقاد بأن هذا الرأي وحده هو الرأي الصواب وأن غيره خطأ على الإطلاق.

إن كل رأي بشري لا يعدو أن يكون اجتهادًا من صاحبه، فليست هناك قداسة أو حصانة إلا للنص الموحَى به، وما عدا ذلك يعد من قبيل الاجتهادات البشرية التي تخطئ وتصيب، كما ينسب للإمام الشافعي قوله: «رأيُنا صوابٌ يحتمل الخطأ ورأي غيرِنا خطأ يحتمل الصوابَ» وهنا نجد أن قيمة التسامح تمتزج بقيمة الاحترام.

ولكن الأمر المحزِن أننا اليوم نفتقد كلًّا من قيمة الاحترام والتسامح معًا في كثير من جوانب حياتنا. فالكثيرون يستهينون بهما ولا يعيرونهما أي اهتمام. وإذا عبرت عن رأيك وكان مخالفًا لرأي الآخرين كان ذلك مدعاة لتسفيه هذا الرأي ورفضه، ووصف صاحبه بكل نقيصة. فإذا كان الرأي يتَّصل بقضية دينية، فهناك اتهامات جاهزة بالكفر والفسوق والزندقة والإلحاد، وإذا كان يتصل بقضية سياسية، فصاحب الرأي عميلٌ للأعداء وصَنيعةُ الاستعمار، وإذا كان يتصل بقضية اجتماعية يمكن أن يوجَّه لصاحبه الاتهام بإشاعة الفساد والانحلال في المجتمع.

لقد عبر الشيخ محمد عبده منذ أكثر من قرن من الزمان عن رُوح التسامح التي تَسَعُ كل تَنوُّع في الآراء دون الخشية من أية اتهامات جاهزة، بقوله: «إذا صدر قول من قائل يحتمل الكفر من مئة وجه

ويحتمل الإيمان من وجه واحد، حُمل على الإيمان ولا يجوز حمله على الكفر»[١].

فالتسامح يعطي مساحة رَحْبة تسع الآخرين وتجعل الشخص لا يضيق ذرعًا بما يصدر عنهم من آراء تخالف ما يتبناه هو من أفكار، وهذا يعني احترام الرأي الآخر.

وكما أُعطي لنفسي الحق في أن يكون لي رأيي الخاص ووجهة نظري المستقلة، فكذلك ينبغي أن أعطي الحق ذاته للآخر، فمن حقِّه أيضًا أن يكون له رأيه الخاص ووجهة نظره المستقلة، بل ومن حقه أن يكون له مُعتقده المختلِف.

ومن هنا لا يجوز لنا أن يَضِيقَ صدْرُنا بالآراء المخالفة لآرائنا، ليس فقط في مجال الأمور اليومية العادية، بل حتى في أمور الدين والفكر والسياسة، فلا يجوز لطرفٍ من الأطراف أن يدَّعي لنفسه أنه وحده الذي يملك الحق المطلق وأن غيره يقف في الطرف المقابل الذي يتساوى مع الباطل.

إن التنوع البشري وما يترتب عليه من تنوع فكري - أمر واقع لا يمكن إنكاره، وبدون هذا التنوع في الكون وفي الإنسان، لا يكون لهذا العالم الذي نعيش فيه طعم ولا لون، وتبدو حياة الناس

(١) الإسلام بين العلم والمدنية، الإمام محمد عبده، دار المدى للثقافة والنشر، دمشق، ٢٠٠٢، ص٧٦.

باهتة لا حَراك فيها. أما التنوع فإنه يدفع الناس إلى التنافس الخلاَّق الذي يؤدي إلى تطوير المجتمعات وترقية الحياة وتفاعل الحضارات والثقافات والأديان وتبادل الأفكار والخبرات.

وبذلك يحقق الإنسان ذاته ويسهم في تعمير هذا الكون ماديًّا ومعنويًّا تحقيقًا للمهمة التي كلَّفه الله بها عند خلْقه، بقوله: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾[هود: ٦١]، أي طلب منكم عمارتها وصُنع الحضارة فيها.

* * *

ماذا يعني الإسلام

أ.د./ محيي الدين عفيفي(*)

أمين عام مجمع البحوث الإسلامية

قد يبدو هذا العنوان غريبًا بالنسبة للمتخصصين أو المشتغلين بالعلم، ولذا نجد الإجابة السريعة الإسلام لغةً واصطلاحًا . إلخ.

إلا أن السؤال الذي ورد عنوانًا للمقال لم يقصِدْ تلك الإجابةَ الأكاديميةَ، وإنما قُصِد به بيانُ الفَهم الواقعيِّ والفهم السلوكيِّ للإسلام.

وما ينبغي أن يكون واضحًا في ذهن كلِّ مسلمٍ ومسلمة في أي موقع اجتماعي [الأب، الأم، الأخ، الأخت، الابن، البنت.]، كلٌّ في موقعه، وفي أي مجال من مجالات العمل: في البيت أو المدرسة أو الجامعة أو مواقع العمل أو المسئولية.

من الأهمية بمكان أن يكون معنى الإسلام واضحًا في أذهان جميع المنتسبين إليه؛ لأن عدم الوضوح فتَحَ الباب أمام أدعياءِ الإسلام والمتاجرين به أن يستغلوا عواطفَ الشبابِ وحماسَهم ليمرروا مشاريعَ التضليل باسم الإسلام عبر شعاراتٍ ولافتات مختلفة.

(*) مجلة الأزهر، عدد شهر شعبان ١٤٣٨هـ / مايو ٢٠١٧م، الجزء (٨).

إننا حين نتأمل في معنى الإسلام نجد أن السلامَ والأمان من أبرزِ معانيه، وقد حرص النبي ﷺ على بيان هذا المعنى في قوله «المسلم من سَلِمَ المسلمون من لسانه ويده»(١).

هذا الحديثُ يبين حقيقةَ المسلم ويبينُ معالمَ الإسلام في حياته. وبعيدًا عن الاستطراد أو البيان لحقيقة المسلم نود أن نؤكد على معنى «سَلِمَ المسلمون»، فقد يؤدي المسلمُ العباداتِ ويحافظُ عليها ويجتهدُ فيها، لكنه في الوقتِ نفسه قد يؤذي المسلمين بسوءِ فهمه للإسلام، أو تدينه المغشوش الذي يتوهم أنه الإسلامُ الحقيقيُّ، ولذا فهو يؤذي المسلمين بفهمه المغلوطِ الذي ينشر التعصبَ والغلو والتطرف والمفاصلة الشعورية للمجتمع ويكفره، ويختزل الإسلام في قضايا فرعية.

إن الإسلام يعني من جملة ما يعنيه: السلامةَ من شرور الإنسانِ؛ من شر لسانه وفكره المنحرف، ولذا قال النبيُّ ﷺ لمعاذ بن جبل: «ألا أخبرُك بملاكِ ذلك كله؟» فقلت له: بلى يا نبي الله. فأخذ بلسانه، فقال: «كفَّ عليك هذا» فقلت: يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «ثكِلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس على وجوههم، أو قال: على مناخرهم في النار إلا حصائد ألسنتهم؟»(٢).

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ١/ ٩ (١٠) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، ومسلم في صحيحه ١/ ٦٥ (٦٥-٤١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.
(٢) أخرجه الإمام أحمد في مسنده ٣٦/ ٣٤٥ (٢٢٠١٦).

إن هؤلاء الذين يسلكون مسلك التكفير ويحاولون نشر سمومهم باللسان، وبالدعم المالي والتخطيط لمشاريع تدمير الأوطان والحياة والأحياء، أو بإنتاج وإخراج الأفلام والفيديوهات التي تتحدث عن الجهاد في الإسلام بفهم مغلوط، وبانتقاء غير مقبول لتسويغ التكفير والتفجير بدعاوى مختلفة منها: الولاء والبراء، وتطبيق الشريعة، وإقامة الخلافة، وغير ذلك من الشعارات التي أدت إلى استقطاب فئات من الشباب واستغلال عواطفهم وحماسهم؛ لينحازوا إلى هذا الفكر المنحرف البعيد عن معنى الإسلام؛ ليستبيحوا الدماء والأعراض والأموال للمسلمين وغير المسلمين، ويفجرون الكنائس، ويخدعون الشباب الذي يشارك في التفجير، أنه كلما كانت أعداد الضحايا كثيرة كانت منزلة الانتحاري عالية في الجنة.

إن النبي ﷺ حذر من إيذاء الناس، وبيَّن أنه من أخطر الأمور عند الله، وقد بيَّن القرآن الكريم حرمة النفس البشرية، قال تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَآ أَحْيَا ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَآءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِٱلْبَيِّنَٰتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ ذَٰلِكَ فِى ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ﴾ [المائدة: ٣٢].

وقد روى الإمام أحمد في مسنده عن أبي هريرة عن النبي ﷺ يقول: «المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده، والمؤمن من أمنه الناس على دمائهم وأموالهم»(١).

وعن عمرو بن مالك الجَنبيِّ، قال: حدثني فضالة بن عُبيد، قال: قال رسول الله في حجة الوداع: «ألا أخبركم بالمؤمن؟ المؤمن: من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم، والمسلم: من سلم الناس من لسانه ويده.»(٢).

إن الإسلام لم يكن في يوم من الأيام مشكلة عند المسلمين؛ لأن الإسلام يعني العيش في سلام واستقرار وتحقيق الأمن للحياة والأحياء، ولم يكن سبيلًا لقتل الناس أيًّا كان دينهم أو مذهبهم أو فكرهم، أو ترويعهم، أو استحلال أموالهم وأعراضهم، يقول رسول الله ﷺ: «من قتل معاهدًا لم يرِح رائحة الجنة، وإن ريحها توجد من مسيرة أربعين عاما»(٣)، إن المبدأ الشرعي الخاص بحماية النفس مبدأ شامل يعطي حق الإنسان في الحياة وسلامته الجسدية. إن رسول الله ﷺ قال: «إن الله يعذِّب الذين يعذبون

(١) أخرج شطره الأول البخاري في صحيحه٨/ ١٢٧ (٦٤٨٤)، ومسلم ١/ ٦٥ (٦٤-٤٠)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، وشطره الثاني أحمد في المسند ١٤/ ٤٩٩ (٨٩٣١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أحمد في مسنده ٣٩/ ٣٨١ (٢٣٩٥٨).

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ٤/ ١٢٠ (٣١٦٦)، من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما.

الناس في الدنيا»[١]، ولم يقل يعذبون المسلمين ليؤكد على أن الإسلام يحترم إنسانية الإنسان، دون النظر إلى دينه أو غير ذلك.

إن النبي ﷺ قال: «ألا من ظلم معاهدًا، أو انتقصه، أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئًا بغير طيب نفسٍ، فأنا حجيجه يوم القيامة»[٢]. ويعد هذا الحديث تهديدًا كبيرًا لكل مسلم تُسوِّل له نفسه الاعتداء على أي حق من حقوق غير المسلمين أو المعاهدين[٣].

إن الإسلام ليس قضيةً شخصيةً تختلف فيها وجهات النظر، ويعمل كل فريق على استغلالها لخدمة أغراضه ومصالحه؛ لأن الأديان ما جاءت إلا لرحمة الناس وسلامتهم، وإن تعاليم الإسلام رسَّخت ذلك، فقد قال تعالى مخاطبًا رسوله الكريم ﷺ: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةً لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧]. والنبي ﷺ قال: «إنما أنا رحمة مهداة»[٤]. وهذه الرحمة ليست للمسلمين فقط وإنما للمسلمين وغيرهم؛ لأن الدين يعمل على صناعة الحياة لجميع الناس، على أساس صيانة الحقوق والحريات، فكل إنسان له الحق

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/ ٢٠١٨ (١١٨ – ٢٦١٣)، من حديث هشام بن حكيم بن حزام رضي الله عنه.

(٢) أخرجه أبو داود في سننه ٣/ ١٧٠ (٣٠٥٢)، من حديث صفوان بن سليم عن عدد من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ.

(٣) حقوق الإنسان في ضوء الحديث النبوي، يسري محمد أرشد، ص٩٦.

(٤) أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه (ط. عوامة) ١٦/ ٥٠٤ (٣٢٤٤٢)، والبزار في مسنده (البحر الزخار) ١٦/ ١٢٢ (٩٢٠٥)، كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

في الحياة، وله حرية ممارسة شعائر دينه، وليس من حق الآخرين الاعتداء عليه أو حرمانه بدعوى أنه كافر أو مخالف في الدِّين، إن المخالفة في الدين أو المذهب أو الفكر لا تسوغ القتل؛ لأن الله تعالى شاء أن يختلف الناس في أديانهم ومذاهبهم، وإن ممارسة أي فعل من شأنه أن ينال من أديانهم ومذاهبهم يُعد رفضًا لإرادة الله تعالى في خلقه.

إن الإسلام احترام لاختيارات الناس في الحياة وتحريرهم من أي إكراه تحت أي مسمًّى لحملهم على اعتناق أي فكر، يقول الشيخ محمود شلتوت: «الفهم الإنساني في الإسلام ليس دينًا يلتزم، لقد اتصلتْ بالقرآن، بعد أن التحق محمد ﷺ بربه ـ أفهام العلماء والأئمة فيما لم يكن من آياته نصًّا في معنى واحد، ومن هذا الجانب اتسع ميدان الفكر الإنساني، وكثرت الآراء والمذاهب لا على أنها دين يُلتزَم، وإنما هي آراء وأفهام . وهذا الصنيع لم يكن من هؤلاء الأئمة إلا اجتهادًا فرديًّا، لا يوجب واحد منهم على أحد من الناس أن يتبعه»[1].

يقول الدكتور طه حسين وهو يتحدث عن عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: «وكان رجلًا يحب أن يكون عمليًّا كما يقال، فلم يكن يُعَلِّمُهم الدين خالصًا، وإنما كان يعلمهم الدين، ويبين لهم كيف يلائمون بينه وبين حياتهم اليومية، وكيف يطابقون بينه وبين ما يأتون من الأمر وما

---

(١) الإسلام عقيدة وشريعة، الشيخ محمود شلتوت، ص٨.

يدَعون، ويؤدب نفوسهم بأدب الدِّين كما أن رعايته لشؤون الدِّين قد حملته على أن يبتكر أشياء لم يكن للمسلمين بها عهد أيام النبي ﷺ ولا أيام أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فهو الذي أخذ الناس بقيام رمضان بعد أن تُصلى العشاء.

إن التاريخ خلد موقف عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ حينما صلَّى خارج كنيسة القيامة؛ احترامًا لحق النصارى في كنيستهم، حتى لا يأتي من بعده مَن يحاول ادعاء الملكية للمكان الذي صلَّى فيه عمر لو أن عمر صلَّى داخل الكنيسة.

لقد فهم عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الإسلام وطبَّق فهمه عمليًّا، حين دخل بيت المقدس، وأعطى أهلها أمانًا على معابدهم وكنائسهم وعقائدهم وأموالهم، فكان قدوة وأسوة في سماحته وعدالته.

وإن التاريخ، سيذكر بكلِّ سوء، المجرمين الذين لم يعرفوا سماحة الإسلام، فقاموا بالتخطيط والدعم لتفجيرِ الكنائس. إن الإسلام أمان وسلام ورحمة، وقد أوصانا رسولنا الكريم أن نتخلَّق بأخلاق الله، ومن أخلاقه الرحمة، حيث قال: «الراحمون يرحمهم الرحمن»[١]، وكما أوجب الله تعالى على الإنسان أن يرحمَ أخاه الإنسان أوجب عليه أن يرحمَ الحيوانَ؛ لأن الرحمة أثرٌ من آثار الإيمانِ، وإن قسوةَ القلبِ تنافي الإنسانية[٢].

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ٤/ ٢٨٥ (٤٩٤١)، والترمذي في سننه ٤/ ٣٢٣ (١٩٢٤)، كلاهما من حديث عبد الله ابن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا.

(٢) من توجيهات الإسلام، الشيخ محمود شلتوت، ص٣٠٤-٣٠٧.

الإسلام . والأخلاق

أ.د/ أحمد عمر هاشم(*)

عضو هيئة كبار العلماء

وأما سلوكه فإنه كان قمّةً في الأخلاق فقد عُرف منذ صغره بالصادق الأمين، وعُرف بالتسامح والعفو والصفح عن جميع الناس حتى عمن أساء إليه، فقد كان يصل مَن قطَعه، ويعفو عمن أساء إليه، ولا يقابل السيئة بمثلها، بل يقابلها بالحسنة.

إن الإسلامَ كُلٌّ لاَ يتَجزّأ، فالعقيدة هى الأساس، والعبادات تطبيق عمليٌّ للعقيدة، والخلق ثمرة للعبادات.

والعبادة من دون الإيمان لا تكون صحيحة، والإيمان دون عبادة لا يكون كاملًا. وليس الإيمان بالتمني، ولكن ما وقَر في القلب وصدَّقه العمل، وإن قومًا غرَّتهم أماني المغفرة خرجوا من الدنيا ولا حسنة لهم، وهم يقولون نحسن الظن بالله، وكذبوا، لو أحسنوا الظن لأحسنوا العمل.

وتأتي الأخلاق ثمرة الأعمال التي قامت على أساس الإيمان الصحيح، فنرى الصلاة تنهى صاحبها عن الفحشاء والمنكر، ونرى

(*) مجلة الأزهر، عدد شهر شوال ١٤٣٦هـ / أغسطس ٢٠١٥م، الجزء (١٠).

الزكاة تطهر الناس وتزكيهم، كما قال الله تعالى: ﴿ خُذۡ مِنۡ أَمۡوَٰلِهِمۡ صَدَقَةٗ تُطَهِّرُهُمۡ وَتُزَكِّيهِم بِهَا ﴾ [التوبة:١٠٣].

ونرى الصيام يصل بالصائمين إلى تقوى الله كما قال تعالى: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُتِبَ عَلَيۡكُمُ ٱلصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِكُمۡ لَعَلَّكُمۡ تَتَّقُونَ ﴾ [البقرة:١٨٣].

ونرى الحج المبرور هو المقبول الذى لا رفثَ فيه ولا فسوقَ: ﴿ فَمَن فَرَضَ فِيهِنَّ ٱلۡحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي ٱلۡحَجِّۗ ﴾ [البقرة:١٩٧].

فالعبادات - إذًا - تُثمر الأخلاق الحسنة، ونرى تركيز القرآن الكريم على إبراز جانب الخُلُق في رسول الله ﷺ، حيث اختاره الله سبحانه أُسوةً حسنةً لأمته؛ إذ قال الله تعالى: ﴿ لَّقَدۡ كَانَ لَكُمۡ فِي رَسُولِ ٱللَّهِ أُسۡوَةٌ حَسَنَةٞ لِّمَن كَانَ يَرۡجُواْ ٱللَّهَ وَٱلۡيَوۡمَ ٱلۡأٓخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرٗا ﴾ [الأحزاب:٢١].

وزَكَّاهُ الله بالخلُق العظيم، حيث قال الله سبحانه مخاطبًا رسوله ﷺ: ﴿ وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٖ ﴾ [القلم:٤].

ولله درُّ القائل:

يا مصطفى من قبل نشأة آدم

والكـون لم يُفتـح لـه إغلاقُ

أيـروم مخلـوقٌ ثنـاءَك بعدما
أثنَـى عـلى أخلاقِـك الخـلَّاق؟

وقد وضح الرسول ﷺ، أهمية الأخلاق بقوله وسلوكه: أما القول: فحيث جاء في الحديث: «أثقل ما يوضع في الميزان يوم القيامة تقوى الله وحسنُ الخلُق»(١). وأما سلوكه فإنه كان قمَّة في الأخلاق، فقد عُرف منذ صغره بالصادق الأمين، وعُرف بالتسامح والعفو والصفح عن جميع الناس حتى عمن أساء إليه، فقد كان يصل من قطعه ويعفو عمن أساء إليه، ولا يقابل السيئة بمثلها بل يقابلها بالحسنة، مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَوِي ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ [فصلت :٣٤].

لقد واجه السيئة من أعدائه بالحسنة حين ناصَبُوه العداء وأساءوا إليه فلم يقابل السيئة بمثلها، بل كان يحسن إليهم، حيث يدعو الله لهم قائلا: «اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون»(٢).

---

(١) أخرجه عبد بن حميد في مسنده (المنتخب من مسند عبد بن حميد) ١/ ٤٥٢ (١٥٦٥)، والطحاوي في شرح مشكل الآثار ١١/ ٢٥٥ (٤٤٢٦)، والطبراني في المعجم الكبير ٢٤/ ٢٥٣، ٢٥٥، ٢٥/ ٧٣، وفي مسند الشاميين ٣/ ٢٤٥ (٢١٧٩)، من حديث أم الدرداء رضي الله عنها.
(٢) أخرجه الضياء في المختارة ١٠/ ١٤ من حديث ابنِ عباس رضي الله عنهما، والبيهقي في شعب الإيمان ٣/ ٤٥ (١٣٧٥) عن عبد الله بن عبيد مرسلًا.

وعندما عاد من إحدى الغزوات واستراح في ظل شجرة وعلَّق سيفه على أحد أغصانها جاءه أحد المنافقين آخذًا السيف يهدِّده قائلًا: من يمنعك مني؟ فأجابه قائلًا: «يمنعني الله»، فوقع السيف من يد المنافق، وتناوله الرسول ﷺ قائلًا: «وأنت منْ يمنعك مني؟» فقال له الرجل: كن خيرَ آخذ، فعفا عنه الرسول ﷺ فعاد الرجل إلى قومه قائلًا: جئتكم من عند خير الناس. وكان عفوه العامُّ عن المشركين الذين آذَوه وأخرجوه من مكة، فعندما فتح الله عليه مكة وأسبغ الأمان على أهلها وقال: «من دخل البيت فهو آمن، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن .»، إلى أن قال: «ما تظنون أني فاعل بكم؟» قالوا: خيرًا أخٌ كريم وابنُ أخٍ كريم، قال: «اذهبوا فأنتم الطُّلَقاء»(١)، وعفا عنهم رسول الله ﷺ.

وأيضًا عفوه عن فَضَالَةَ الذي أراد أن يغْتَاله في المطاف، فأوحى الله إليه فلما عرف نيتَه وأخبره بها عجِب الرجل وبُهت وأيقن أنه لم يُعْلمه أحدٌ بهذه النية، ولم يكن الرجلُ أعلم أحدًا بما نواه فقال: لا بد أنه رسولٌ حقًّا، فوضع الرسول ﷺ يده الشريفة على صدر الرجل ودَعَا له بالهداية، يقول الرجل: ما رفع يده عن صدري إلا ولا أجدُ أحبَّ إليَّ منه وأعلن إسلامه قائلًا: أشهد ألَّا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا رسول الله.

(١) أخرجه عبد الرزاق في المصنف ٤/ ٥٥. وانظر: الأوسط لابن المنذر ٦/ ٣٧٨، والسنن الكبرى للبيهقي ٩/ ١١٨، ومعرفة السنن والآثار ١٣/ ٢٩٣.

فنرى في هذا المشهد عظمة الخُلُق النبوى الذي وصل إلى درجة أن يعفو عمن حاول أن يقتله، ونرى ثمرة العفو الذي دفع الرجل لأن يُعلِن إسلامه. بل أكبر صور العفو تجلَّت مع عبد الله ابن أُبى بن سَلول رأس المنافقين، الذي أراد أن يهزَّ الإسلام وبيتَ النبوة بحديث الإفك الذي ادَّعاه على الصدِّيقة بنت الصدِّيق، ونزلت براءتها من فوق سبع سماوات، ومع هذا عندما مات عبد الله بن أبيٍّ؛ طلب ابنه من الرسول ﷺ أن يعفو عنه وأن يكفِّن في قميصه وأن يصلِّي عليه، ووافق الرسول ﷺ لو لا نزول القرآن ﴿ وَلَا تُصَلِّ عَلَىٰٓ أَحَدٍ مِّنْهُم مَّاتَ أَبَدًا ﴾[1] [التوبة: ٨٤].

كما تجلَّى خُلق العفو والصفح من أبى بكر الصديق رضي الله عنه عندما أقسم ألا ينفق على مِسطح بن أُثاثة قريبه وكان فقيرًا يعيش على نفقة أبي بكر، وعندما خاض مع من خاضوا في حديث الإفك أقسم أبو بكر ألا ينفق عليه، فنزل قول الله تعالى: ﴿ وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِي ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٢/ ٩٦ (١٢٦٩)، ٦/ ٨٥، ٨٦ (٤٦٧٠، ٤٦٧٢)، ٧/ ١٨٥ (٥٧٩٦)، ومسلم في صحيحه ٤/ ١٨٦٥، ٢٤٤١ (٢٥ - ٢٤٠٠، ٣ - ٢٧٧٤)، كلاهما من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما. وأخرجه البخاري ٢/ ١٢١ (١٣٦٦) من حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

[النور:٢٢]. فقال أبو بكر رضي الله عنه: بلى يا رب أحب أن تغفر لي، وأعاد النفقة التي كان ينفقها على مِسطح وقال: لا أنزعها منه أبدًا[1].

ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم جامعًا لمكارم الأخلاق وصنائع المعروف منذ نشأته الأولى وقبل أن يوحى إليه وتتنزل عليه الرسالة، كان معروفًا بالصادق الأمين، و بأزكى الشيم وأنبل الأخلاق، وعندما جاءه الوحى وهو في غار حراء لأول مرة وقال له جبريل: «اقرأ» وضمَّه عدة مرات، رجع ترتعد أعضاؤه من أول مرة قائلًا: «لقد خشيتُ على نفسى» فأجابته السيدة خديجة قائِلة: كلَّا والله لا يُخزيك الله أبدًا، إنك لَتصِلُ الرحمَ وتحمل الكَلَّ، وتُكسِبُ المعدوم وتُقري الضَّيف وتُعين على نوائب الحق»[2]. لقد طمأنته وأنه لا يخزيه الله أبدًا، وأقسمت السيدة خديجة على ذلك حيث قالت: كلا والله. ومثل هذا القسم يحتاج إلى دليل فوضحت الدليل بما عرفته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم من مكارم الأخلاق، وصنائع المعروف، حيث قرأت صفحة حياته، وتأكدت مما كان يتسم به من معالي الأمور فقالت له عندما قال لها لقد خشيت على نفسى، زمِّلوني زمِّلوني، قالت له السيدة خديجة رضي الله عنها: كلا والله لا يخزيك الله أبدًا؛ إنك لتصل الرحم،

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/ ٢٣١ (٢٦٦١)، ٥/ ١٥٣ (٤١٤١)، ٦/ ١٣٢، ١٣٤، ١٣٦ (٤٧٥٠، ٤٧٥٦، ٤٧٥٧)، ٨/ ١٧٢ (٦٦٧٩)، ومسلم في صحيحه ٤/ ٢١٢٩ (٥٦ - ٢٧٧٠)، كلاهما من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ١/ ٣ (٣)، ٦/ ٢١٥ (٤٩٥٣)، ٩/ ٣٨ (٦٩٨٢)، ومسلم في صحيحه ١/ ١٣٩ (٢٥٢-١٦٠) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

وتحمل الكَلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الحق، وهذه الأمور قال عنها العلماء: إنها صنائع المعروف التي تقي صاحبها مصارع السوء(١).

ومما لا ريب فيه أن الإسلام هو دين الأدب العالي والذوق الرفيع ومكارم الأخلاق.

* * *

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الأوسط ١/ ٢٨٩ (٩٤٣) من حديث معاوية بن حَيْدَة رضي الله عنه، ٦/ ١٦٣ (٦٠٨٦) من حديث أم سلمة رضي الله عنها، وفي المعجم الكبير ٨/ ٢٦١ من حديث أبي أمامة رضي الله عنه، والحاكم في المستدرك ١/ ١٢٤ من حديث أنس رضي الله عنه.

دعوة الإسلام إلى الوحدة

أ.د/ أحمد عمر هاشم(*)

عضو هيئة كبار العلماء

الوحدة: هي اتحاد الدول أو البلاد والأفراد والجماعات في سائر أمور حياتهم ومعاشهم، وسيرتهم، وغايتهم، وبموجب هذه الوحدة يصبح الجميع شيئًا واحدًا، أو أمة واحدة. يقال: اتَّحد البَلدان، أي: صارا بلدًا واحدًا، واتَّحدت الأشياء، صارت شيئًا واحدًا.

ويقال وحَّد المتعدد: أي صيَّره واحدًا، واتَّحد به: أي صار معه شيئًا واحدًا.

ولأهمية وحدة الأمة واجتماعها، ردَّ الله سبحانه أنسابنا جميعًا منذ وُجدت الخليقة وإلى يوم يبعثون إلى أصل واحد، فكلنا لآدم عليه السلام، وللبشرية جمعاء أب واحد وأم واحدة، خلقنا منهما من (ذكر وأنثى)، قال جل شأنه: ﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات:١٣]. ووضَّح سبحانه أن الأمَّة واحدة، وأن الربَّ واحد

(*) ملحق مجلة الأزهر، شهر المحرم ١٤١٨هـ.

فقال جل شأنه: ﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون:٥٢]. ووضَّح رب العزة - سبحانه وتعالى - أن وحدة الأمة تستوجب عليها ألا يتفرقوا في الدين وألا يختلفوا، فقال سبحانه: ﴿ شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ ﴾ [الشورى:١٣]، والذين يُفرِّقون دينهم ويختلفون شِيعًا يُعادي بعضهم بعضًا؛ بعيدون عن الحق وعن الدين وعن الله ورسوله ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُوا۟ دِينَهُمْ وَكَانُوا۟ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ ﴾ [الأنعام:١٥٩].

والمتفرِّقون فريسة لأعدائهم يتغلبون عليهم بسهولة وتتداعى عليهم الأمَمُ كما تتداعى الأَكلَة إلى قَصْعَتِها، فيُعتدى عليهم في كل وطن، ويُقاتَلون في كل مكان ويضيعون فرقة بعد أخرى وجماعة بعد جماعة، كما يكونون في فرقتهم فريسة للشيطان ولكل عدوان، عن سعيد بن المسِّيب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «الشيطان يهمُّ بالواحد والاثنين، فإذا كانوا ثلاثة لم يهمَّ بهم»[١].

(١) أخرجه البزار في مسنده (البحر الزخار) ١٤/ ٢٥٣ (٧٨٣٤)، والبيهقي في السنن الكبرى ٥/ ٢٥٧.

ولخطر الفرقة وعدم الوحدة حذَّر الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - منها أشد التحذير، وبيَّن أن الذي يخرج عن الطاعة ويفارق الجماعة يموت على ما كان عليه أهل الجاهلية من البُعد عن الدين والوحدة فقال ﷺ: «مَن خرَج عن الطاعةِ وفارق الجماعةَ فمات، مات مِيتةً جاهلية»(١).

وواضح أن قوة المؤمنين في وحدتهم وأن ضعفهم في تفرقهم، قال ﷺ: «المؤمن للمؤمن كالبنيان يشدُّ بعضه بعضًا»(٢)، ومن أجل أن يكون المؤمنون قوة واحدة، لا بد أن يتآلفوا ويتعارفوا وأن تسري رُوحُ التعاطف والتراحم فيما بينهم ليُصبحوا كالجسد الواحد، فيشعر كلٌّ منهم بشعور الآخر؛ يفرح لفرحه ويحزن لحزنه، ويشاركه في السرَّاء والضراء، ويخفُّ لنجدته، ويبادر بمساعدته، مصداقًا لقول الرسول ﷺ: «مثل المؤمنين في توادِّهم وتراحمهم وتعاطفهم، كمثل الجسد إذا اشْتكى منه عضو تداعَى له سائر الجسد بالسَّهر والحُمَّى»(٣).

إن وحدة أمَّتنا واجبة وضرورية لمواجهة التحديات والتكتُّلات والأخطار التي تُحدق بالأمة من كل جانب، ولو نظرنا إلى ما تملكه أمَّتنا الإسلامية والعربية من الثروة البشرية والمعدنية والبترول،

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٣/ ١٤٧٦ (٥٣ - ١٨٤٨).
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ١/ ١٢٩ (٤٨١)، ٣/ ١٦٩ (٢٤٤٦)، ٨/ ١٤ (٦٠٢٦)، ومسلم في صحيحه ٤/ ١٩٩٩ (٦٥ - ٢٥٨٥).
(٣) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/ ١٩٩٩ (٦٥ - ٢٥٨٦).

والعقول والحضارة والعلم، والزراعة إلى غير ذلك من أسباب القوة والمَنعة، لو نظرنا إلى ما تملكه أمتنا من هذا كله لكنا على يقين بأننا حين نتوحد ونتجمع نصبح أكبر قوة مؤثرة في العالم كله.

ومن أجل ذلك أدرك أعداء أُمَّتنا، سرَّ قوتنا، فراحوا يعملون على نشر مبدئهم: (فرِّق تسُدْ)، فكانت الحدود المصطنَعة، وكانت أساليب التفرقة المتعددة في الثقافة وفي نشر مبادئ الاختلاف بين الأمة؛ لإحداث شروخ بين فصائل الشباب المسلم، وبينهم وبين الدعاة والأنظمة، ومحاولة تضخيم بعض الاجتهادات والخلافات الفقهية.

وإلى جانب الذين سعوا جاهدين في فصْلِ الأمة عن دينها ودستورها؛ لأنه يوحِّدها فقال أحدهم في بعض المؤتمرات: (لا قرار لنا ما دام المصحف في أيدي المسلمين).

الوحدة في الإسلام:

أهمية الوحدة: إن الوحدة أساس كل خير في دنيا الناس وآخرتهم. وإن الفُرقة أخطر الآفات التي تقضي على سعادة الناس، وتُرديهم في مَهاوي التهلُكة، وتجرُّهم إلى وَحْلِ المعصية، وتظل تفرِّقهم شِيَعًا حتى تجعلهم ينفصلون تمامًا عن الدين، وفي هذا يقول الحق تبارك وتعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ فَرَّقُواْ دِينَهُمْ وَكَانُواْ شِيَعًا لَّسْتَ مِنْهُمْ فِى شَىْءٍ ۚ إِنَّمَآ أَمْرُهُمْ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُم بِمَا كَانُواْ يَفْعَلُونَ﴾ [الأنعام:١٥٩].

بل إن العلم نفسه حين لا يقوم على أساس الإخلاص، يؤدِّي بأصحابه إلى الخلاف وتصارع الأفكار؛ ذلك لأن آفة العِناد والتعصُّب، والبغضاء والحسد كل ذلك يستبِدُّ بالفكر الإنساني، لهذا جاء القرآن الكريم في دعوته إلى الوحدة يحرِّر عقيدتها وفِكْرها من آفة البغي والحسد، ويُرسي في النفوس دعائم التوحيد والتمسك بالشريعة القوية التي جاء بها الرسول ﷺ فقال تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا ٱخْتَلَفَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴾ [آل عمران:١٩].

أساس الوحدة:

وبيَّن – سبحانه – أن أساس هذه الوحدة التي يدعو إليها الإسلام؛ هي الدين الإسلامي والاعتصام به وبكتابه الذي هو سبب النجاة، وحذَّر – سبحانه – من التفرِقة؛ لما لها من الأخطار المُحدِقة والأضرار الفادحة، وذكَّر الله عباده من هذه الأُمَّة، بما كان عليه الأوْسُ والخزْرج قديمًا، فقيل: إنهما كانا أخوين لأبوين فوقع بين أبنائهما العداوة وتطاولت الحروب بينهم مئة وعشرين سنة، حتى جاء الإسلام فأطْفأ نارها وأخْمَدَ شرَّها، وجمعهم الله بالإسلام وألَّف بينهم برسوله صلوات الله وسلامه عليه . وتدعيمًا لأصول تلك الوحدة وترسيخًا لأساسها؛ يكلِّف الله تعالى هذه الأمة بالأمر

بالمعروف والنهي عن المنكر، انتصارًا للدين، وإقامة لوحدته، ودفعًا لآفات الشر والفساد التي قد تُثَارُ حول حِماه، أو تُرتَكبُ في الوطن الإسلامي ويضرب لنا القرآن الكريم المَثَل بمن قبلنا حين اختلفوا بعد أن جاءتهم البينات فكان لهم الوعيد الشديد.

عن تلك الملامح كلِّها تحدَّث القرآن الكريم حديثًا شافيًا، هاديًا للتي هي أقوم. فقال الله تعالى: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ وَٱذْكُرُواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَاۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٠٣-١٠٥]. وقد وجَّه الرسول ﷺ أمته إلى أساس الوحدة: وهو الاعتصام بحبل الله، عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قال رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَرْضَى لَكُمْ ثَلاَثًا، وَيَكْرَهُ لَكُمْ ثَلاَثًا؛ فَيَرْضَى لَكُمْ أَنْ تَعْبُدُوهُ، وَلاَ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا، وأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا، وَأَنْ تَنَاصَحُوا مَنْ وَلَّاهُ اللهُ أَمْرَكُمْ، وَيَكْرَهُ لَكُمْ: قِيلَ وَقَالَ، وَكَثْرَةَ السُّؤَالِ، وَإِضَاعَةِ المَالِ»(١).

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٣/ ١٣٤٠ (١٠ - ١٧١٥)، والبخاري في الأدب المفرد ٢٠٦ (٤٤٢).

ولا شك أن حَبْلَ الله هو دينه وكتابه يجمع معانيَ العهد بين الخلق وخالقهم والأمانَ لمن تمسَّك به، والصِّلة بينهم وبين الله سبحانه وتعالى، فمن تمسَّك به هُدي إلى صراط مستقيم.

﴿ٱللَّهُ وَلِيُّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَوْلِيَآؤُهُمُ ٱلطَّٰغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ ٱلنُّورِ إِلَى ٱلظُّلُمَٰتِۗ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ [البقرة:٢٥٧]، وقد جاء في الحديث السابق التحذير من التفرقة، في قوله: «وَلَا تَفَرَّقُوا» بعد الأمر بالاعتصام؛ لبيان أن من اعتصم بحبل الله فهو بعيد عن التنازع بعيد عن التفرقة، أما الإعراض عنه، والتماس الاعتصام بغيره ففيه الضلال، «ومن التمس الهُدى في غيره أضلَّه الله»(١)، وقد أشار القرآن الكريم إلى تأكيد هذا المعنى في قوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [الأنفال:٤٦]، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَأَنَا۠ رَبُّكُمْ فَٱتَّقُونِ ۝٥٢ فَتَقَطَّعُوٓاْ أَمْرَهُم بَيْنَهُمْ زُبُرًاۖ كُلُّ حِزْبٍۭ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ ۝٥٣ فَذَرْهُمْ فِي غَمْرَتِهِمْ حَتَّىٰ حِينٍ﴾ [المؤمنون:٥٢-٥٤]. وهكذا نجد الآيات، بعد أن بيَّن سبحانه أن الدين واحد والشريعة واحدة، وأن الأمة واحدة تَتَّفِقُ على الإيمان والتوحيد في العبادة، أشار بعد هذا إلى حال بعض الأمم في المخالفة، وشقِّ عصا الطاعة، فتقطَّعوا قِطعًا وأحزابًا مختلفة.

(١) أخرجه الترمذي في سننه ٥/ ١٧٢ (٢٩٠٦) من حديث علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وفيما رواه البخاري، قال ﷺ: «من خرج عن الطَّاعة وفارق الجماعة فمات، مات ميتة جاهلية»[١].

وفي موطِنٍ آخر أعلن الرسول ﷺ بُعْدَهُ عن مُخالِفِ الجماعة الذي لم يَفِ لها بعهد، وراح يُفرِّق بين الصفوف، ويضرب البَرَّ والفاجر، فقال ﷺ: «من خرَج على أمتي يضرب برَّها وفاجرَها، لا يتحاشى من مؤمنِها، ولا يفي بعهد ذي عهدها، فليس منِّي ولست منه»[٢].

ويقول الله تعالى: ﴿ وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ﴾ [النساء: ١١٥].

العبادات تطبيق عملي للوحدة:

الإسلام في حرصه الشديد على تقوية أركان الأمة الإسلامية وتضافُر قُواها، جعل لعبادتها زيادة في الفضل والأجر إذا كانت في جماعة تعويدًا لهم على الاتِّحاد، وغرسًا لأصوله وروحه فيهم، فجعل لصلاة الجماعة من الثواب والفضل ما يزيد على صلاة المنفرد، وصلاة الجماعة إذْ شرعها الإسلام جعل فيها روح الوحدة اليومية خمس مرات كل يوم، وكما هو الشأن في صلاة العيدين من كل عام، وفيهما يكون الاجتماع أكبر، كما شرع أوسع اجتماع ممكن وأكبر جماعة

(١) تقدم تخريجه.
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٣/ ١٤٧٦، ١٤٧٧ (٥٣، ٥٤ - ١٨٤٨).

يمكن أن تَضُمَّ أكبر عدد من المسلمين من مُختلف الأقطار الإسلامية وعلى شتَّى الألوان والأجناس، وذلك في فريضِه الحجِّ إلى بيت الله الحرام، وفي عبادة الصيام والزكاة تطبيقٌ عمليٌّ للوحدة.

نهاية الفُرقة:

هذا ومن خالف الرسول ﷺ فيما جاء به، واتَّبع غير ما عليه المؤمنون من العقيدة والعمل، يدَعُه الله ويتخلَّى عنه ويوليه ما تولى ذلك في دنياه، وأما في الآخرة فيُصليه جهنم وساءت مصيرًا، وفي هذا المعنى يقول تعالى: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا﴾ [النساء:١١٥].

والمتصفِّح لتاريخ الأُمم والشُّعوب يرى أنه ما استطاعت أمة من أهل السلْب والنهْب والسطْو والظُّلْم، أن تتمكن من غيرها؛ إلا بعد أن تمكنت من تمزيق وحدة غيرها، ومحاولة بثِّ الفُرقة والخلاف، وتلك هي سياسة الاستعمار، وما الغزو الصليبي أو الصهيونية عنا ببعيد فقد كانت أسلحة التفرقة أقوى من أسلحة الميدان، وكانت عناصر التفرقة أضَّر من ضربات السِّنان.

لهذا كله فنحن نُهيب بالمسلمين والعرب في شتى الأقطار الإسلامية والعربية أن يجمعوا أمرهم وأن يلتقوا على كلمة سواء، وأن يدركوا قيمة الهَدْيِ النبوي في قول الرسول ﷺ: «يد الله مع الجماعة، ومن شذَّ شذَّ في النار»(١).

(١) أخرجه الترمذي في سننه ٤/ ٤٦٦ (٢١٦٧).

فإلى وحدة قوية متماسكة البنيان، وصف واحد كالبنيان المرصوص يشُدُّ بعضه بعضًا، وإلى تعارف وتآلف تتضافرُ فيه القوى أممًا وشعوبًا كما قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [الحجرات: ١٣] .

* * *

مكانة الوطن في الإسلام

للأستاذ الدكتور/ أحمد عمر هاشم (*)

إن محبة الأوطان من دلائل الإيمان؛ فما شرع الجهاد في سبيل الله إلا دفاعًا عن العقيدة والأوطان وردًّا للظلم والطغيان، وتأمينًا لدعوة الإيمان، ونشرًا للسلام والأمان.

ومما لا شك فيه أن الجهاد بذل للمهَج والأرواح في سبيل الدفاع عن الدين والأوطان، قال الشاعر:

وللأوطان في دم كل حرٍّ
يدٌ سلَفت وَدْين مستحَقُّ
وللحرية الحمراء بابٌ
بكلِّ يدٍ مضرَّجة يدقُّ (١)

إن مما لا ريب فيه، أن حماية الأوطان واجب كل إنسان. فلا يماري امرؤ ومعه عقله، أن الوطن بيته، فيجب عليه أن يحافظ على أمنه وسلامته، وأن يدافع عنه، ما استطاع إلى ذلك سبيلًا.

وقد أوجب الإسلام الدفاع عن الأوطان، وشرع الجهاد في سبيل الله؛ دفاعًا عن الدين والوطن والأرض والعِرْض، ومن قتل في سبيل الدفاع عن وطنه كان شهيدًا في سبيل الله.

(*) مجلة الأزهر، عدد شهر جمادى الآخرة ١٤٢٤هـ، أغسطس ٢٠٠٣م، الجزء (٦).
(١) البيتان لأمير الشعراء أحمد شوقي، في ديوانه الشوقيات ٢/ ٩٠، ٩١.

ولا تقتصر حماية الأوطان والدفاع عنها على مواجهة العدوان والدخيل فحسب، بل إن من الواجب في حماية الأوطان مناهضة كل فكر مغشوش، أو إشاعةٍ مغرضة، أو محاولة استقطاب بعض الناس لمصلحة أصحاب الأهواء المشبوهة.

كما تشمل حماية الأوطان المحافظة على أسراره الداخلية، وعدم التعامل مع أعداء الوطن أو من يريدون به السوء، أو ينفثون سمومهم في أجواء المجتمعات؛ بغيًا منهم وعدوانًا.

• ومن الأوطان ما هو خاص، مثل وطن الإنسان الذي يعيش فيه. وبلده الذي نشأ على ظهره، ودولته التي يحيا فيها.

• ومن الأوطان أيضًا: ما هو عام مثل العروبة والإسلام، فالعالم العربي وطن كل إنسان عربي، والعالم الإسلامي وطن كل إنسان مسلم.

• ومن الأوطان الوطن الأعم وهو «الإنسانية» جمعاء؛ عربًا كانوا أم غير عرب، مسلمين كانوا أم غير مسلمين. وفي كل نوع من أنواع الأوطان جاءت توجيهات الإسلام واضحة جلية في حمايتها والدفاع عنها في كل وقت وحين، وفي كل حال من الأحوال؛ لأن الإسلام دين عالمي ودين الرحمة أرسل رسوله سيدنا محمد ﷺ رحمة للعالمين، كما قال رب العزة سبحانه وتعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

ولنبدأ بالحديث عن الوطن الخاص وهو الذي يعيش فيه الإنسان وينتمي إليه، فنرى أن الإسلام أوجب على الإنسان حب وطنه، وشرع الجهاد من أجل الدفاع عن العقيدة والوطن، ودعا إلى حماية الوطن من أعدائه، وممن يريدونه بسوء، وممن يريدون إحداث القلاقل والفتن وإثارة المخاوف والاضطراب. وإن واجب كل إنسان أن يتصدى للفتن، ما ظهر منها وما بطن، والذي يحدث القلاقل أو يشجع عليها أو يدعو لها ليس بكامل الإسلام، فقد قال رسول الله ﷺ: «المسلم مَن سَلِم المسلمون من لسانه ويده»[(١)]، وقال أيضًا: «والمؤمن من أمِنه الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم»[(٢)].

ولقد أكد رسول الله ﷺ في حجة الوداع على هذه الحقوق وقال: «إن دماءكم وأموالكم وأعراضكم عليكم حرامٌ، كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا، ألا قد بلغت اللهم فاشهد»[(٣)].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ١/ ٩ (١٠)، ٨/ ١٢٧ (١٦٨٤)، ومسلم في صحيحه ١/ ٦٥ (٦٤ – ٤٠)، كلاهما من حديث ابن عمرو رضي الله عنهما. ومسلم ١/ ٦٥ (٦٥ – ٤١) من حديث جابر بن عبد الله رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الترمذي في سننه ٥/ ١٧ (٢٦٢٧)، وقال: حديث حسن صحيح. والنسائي في سننه (ط. أبي غدة) ٨/ ١٠٤(٤٩٩٥)، كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه بلفظ «دمائهم وأموالهم»، وابن ماجه في سننه ٢/ ١٢٩٨ (٣٩٣٤) من حديث فضالة بن عبيد بلفظ: «وأموالهم وأنفسهم».

(٣) أخرجه البخاري في صحيحه ١/ ٢٦ (٦٧)، ٩/ ٦٣ (٧٠٧٨)، ومسلم ٣/ ١٣٠٦ (٣٠ – ١٦٧٩). كلاهما من حديث أبي بَكْرة رضي الله عنه، والبخاري ٢/ ٢١٥ (١٧٣٩) من حديث ابن عباس رضي الله عنهما، و٢/ ٢١٦ (١٧٤٢)، و٨/ ١٨ (٦٠٤٣)، من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

ومن الخيانة العظمى أن يخون مُواطنٌ وطنَه ويتآمر ضده من أجل منفعة مادية! ومن فعل مثل ذلك كان بعيدًا عن الدين، بعيدًا عن الله؛ لأن المؤمن الحقيقي مَن أَمِنه الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

وإن الإنسان الذي يخون وطنه ويتآمر مع أعدائه إنسان بعيد عن حظيرة الإيمان، إنه يرتكب أبشع أنواع الخيانة، إنه يخون الله الذي أمر بالدفاع والجهاد من أجل الوطن، ويخون رسول الله ﷺ الذي أمر بحماية أمانة الوطن، ويخون أمانات نفسه وأمانات الناس، وقد قال رب العزة سبحانه: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَخُونُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓا۟ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ [الأنفال:٢٧].

فواجب أبناء الوطن أن يكونوا عيونًا ساهرة لحماية أمن الوطن، وأن يتضامنوا في درء أي خطر يتهددهم، وأن يتكاتفوا جميعًا عن بَكْرة أبيهم وبلا استثناء، على ردع كل مَن تُسوِّل له نفسه أن يجترئ على الوطن، وأن يسعى بذمتهم أدناهم، وأن يكونوا يدًا على من سواهم، بغضِّ النظر عن عقائدهم، فيجب أن يتعاونوا جميعًا مسلمين وغير مسلمين.

الرسول ﷺ وحب الوطن

قدوتنا في حب الوطن هو سيدنا رسول الله – صلوات الله وسلامه عليه – فعندما خرج مهاجرًا من مكة إلى المدينة، نظر إلى البيت الحرام

نظرات حانية ثم قال مخاطبًا مكة المكرمة؛ البلد الحرام ومسقط رأسه، ومنزل الوحي وقبلة المسلمين: «والله إنك لأحب أرض الله إليَّ، وإنك لأحب أرض الله إلى الله، ولولا أن أهلك أخرجوني منك ما خرجت»[١].

ثم توجه الرسول ﷺ إلى الله بهذا الدعاء: «الحمد لله الذي خلقني ولم أكُ شيئا، اللهم أعنِّي على هول الدنيا وبوائق الدهر ومصائب الليالي والأيام. اللهم اصَحبْني في سفري، واخلُفْني في أهلي، وبارك لي فيما رزقتني، ولك فذَلِّلْني وعلى صالح خلقي فقوني، وإليك ربي فحببني، وإلى الناس فلا تَكلني. أنت رب المستضعفين، وأنت ربي، أعوذ بوجهك الكريم الذي أشرقت له السموات والأرض، وكشفت به الظلمات، وصلَح عليه أمر الأولين والآخرين، أن تحل على غضبك وتنزل بي سخطك، أعوذ بك من زوال نعمتك، وفجأة نقمتك، وتَحوُّل عافيتك وجميع سخطك، لك العُتْبَى عندي خير ما استطعت، ولا حول ولا قوة إلا بالله»[٢].

وفي قوله ﷺ لمكة: «إنكِ لأحبُّ أرض الله إليَّ» ما يدل على حبه لها، وعدم رغبته عنها إلا للضرورة، وذلك لما خرج ﷺ من مكة فبلغ

---

(١) أخرجه بهذا اللفظ النسائي في السنن الكبرى (ط. الرسالة) ٤/ ٢٨٤ (٤٢٣٩)، وأخرجه بنحوه الترمذي ٥/ ٧٢٢ (٣٩٢٥)، وابن ماجه ٢/ ١٣٥٣ (٤٠٦٩).
(٢) أخرجه عبد الرزاق في المصنف ٥/ ١٥٦، وانظر البداية والنهاية لابن كثير ٤/ ٤٤٥ ،٤٤٦، وعزاه إلى أبي نعيم.

الجُحْفة اشتاق إلى مكة فأنزل الله: ﴿إِنَّ ٱلَّذِى فَرَضَ عَلَيْكَ ٱلْقُرْءَانَ لَرَآدُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍۚ﴾ [القصص :٨٥]، قال: إلى مكة»، انتهى[١].

ومما يدل على أن حب الوطن من الإيمان قوله تعالى: ﴿وَمَا لَنَآ أَلَّا نُقَٰتِلَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَٰرِنَا﴾ [البقرة :٢٤٦] .

والناس يحبون أوطانهم ففيها حياتهم ونشأتهم، وبها تعلقت عواطفهم، وفيها توصل الأرحام والإحسان إلى أهل الوطن من فقراء ومحتاجين.

وفي كل جزء في الوطن عاطفة للإنسان ترتبط به، ولا تفرط فيه، وإذا كانت مكة وطنًا أول لرسول الله ﷺ، فإن المدينة المنورة كانت الوطن الثاني الذي هاجر إليه، ودعا للمدينة ولأهلها، ودعا بالبركة فيها، حيث قال: «واجعل بالمدينة ضِعْفَي ما جعلت بمكة من البركة»[٢].

وتتجلى محبته - صلوات الله وسلامه عليه - للمدينة ومحبة أهل المدينة له في استقبالهم وحفاوتهم به وبالمهاجرين من أول لحظة قدم فيها المدينة.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٩/ ٣٠٢٦ (١٧٢٠٥). والجحفة: قرية كبيرة على طريق المدينة من مكة، على أربع مراحل، وهي ميقات أهل الشام؛ وسميت الجحفة لأن السيل أجحفها وحمل أهلها في بعض الأعوام، ثم خربت وصار الناس يُحرمون من رابغ. انظر معجم البلدان ٢/ ١١١.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/ ٢٩ (١٨٨٥).

كما تتجلى محبته للمدينة ومحبة أهلها له، بعد أن فتح الله عليه مكة، وفرح بالفتح فرحًا عظيمًا وكان حفيًّا بالكعبة المشرفة والمسجد الحرام . وعندئذ خاف الأنصار أن يقيم رسول الله ﷺ في مكة، ولا يرجع إلى أهل المدينة فيحرمون منه، فقال بعضهم لبعض: أما الرجل فأدركته رغبة في قريته، ورأفته بعشيرته، أترون رسول الله ﷺ إذ فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها؟ فأوحى الله إليه بما جرى، فذهب رسول الله – صلوات الله وسلامه عليه – إليهم فأخبرهم بما قالوا.

فأقروا، فطمأنهم قائلًا: «كلا، إني عبد الله ورسوله، هاجرت إلى الله وإليكم، فالمحيا محياكم والممات مماتكم».[1] فأقبلوا إليه يبكون ويقولون: ما قلنا الذي قلنا إلا الضنَّ بالله ورسوله. فقال رسول الله ﷺ: «إن الله ورسوله يُصدِّقانكم ويَعْذِرانكم»[2].

هذا هو النموذج الأمثل في حب الوطن والتعلق به، والوفاء له والانتماء الصادق إلى العقيدة الحقة، التي تدعو إلى حبه وصدق الانتماء إليه، وهذا يجعل الناس ينافحون عنه وينتصرون له، ويضحون بالنفس والنفيس في سبيله، وتكون خيانته أو التفريط في حقه في الأمن والاستقرار من الخيانة العظمى، التي تورد صاحبها موارد الهلاك.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٣/ ١٤٠٥، ١٤٠٧ (٨٤ـ ١٧٨٠، ٨٦ـ ١٧٨٠).
(٢) أخرجه مسلم في صحيحه ٣/ ١٤٠٥ (٨٤ - ١٧٨٠).

إن حب الوطن يدعو كل مؤمن صادق الإيمان، أن يكون وفيًّا لتراب الوطن الذي نشأ عليه، وأن يصونه من كل غائلة، ومن كل ترويع أو اضطراب، فلا إيمان لمن لا أمانة له، ولا دين لمن لا عهد له. إن سمات المؤمن أن يأمنه الناس، على دمائهم وأموالهم وأعراضهم، بل يكون اسمه نداء النجدة للمكروبين والمفزوعين، ويكون في جواره الأمن والطمأنينة.

وإن الإسلام حين يدعو إلى حب الأوطان، ونشر الطمأنينة فيها والأمان. إنما يقرر المبدأ الإسلامي الذي يجب أن يسود في الأرض، وهو مبدأ الحرية والسلام، والأمن والاستقرار، بل إن الإسلام قرر مبدأ الجوار، ومبدأ الأمن لمن يجير إنسانًا ولو كان كافرًا، فلا تمتد يد بسوء إليه.

فقد كانت السيدة أم هانئ بنت أبي طالب زوج هُبيرة بن أبي وهب المخزومي قد أجارت بعض أقارب زوجها بعد الفتح وهما: الحارث بن هشام وزهير بن أبى أمية المخزومي، فدخل عليها أخوها علي بن أبى طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يريد أن يقتل الرجلين فمنعته أم هانئ، ثم جاءت إلى رسول الله ﷺ وهو في مكة، فلما رآها رسول الله ﷺ قال: «مرحبًا بك وأهلًا يا أم هانئ، ما جاء بك؟» فقالت: يا نبي الله كنت أَمَّنتُ رجلين من أحمائي فأراد علي قتلهما، فقال رسول الله ﷺ: «قد أجَرنْا مَن أجَرتِ يا أم هانئ»(١).

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ١/ ١٠٠ (٣٥٧)، ٤/ ١٢٢ (٣١٧١)، ٨/ ٤٦ (٦١٥٨)، ومسلم في صحيحه ١/ ٤٩٨ (٨٢ - ٣٣٦).

فماذا كانت نتيجة هذا الجوار والأمان لهذين الرجلين؟ لقد أسلم الحارث وزهير وكانا عونًا للإسلام وأهله، وهكذا كانت ثمرة تعاليم الإسلام في دعوته إلى الأمن والاطمئنان، وحبِّ الأوطان.

ولله دَرُّ القائل:(١)

بلادي وإن جارت علي عزيزة
وأهلي وإن ضنوا علي كرام

ومعنى هذا أن الإنسان يعزُّ عليه أن تَشْقَى بلده، وحتى لو فرض أنها جارت عليه، أو ناله منها عَسْفٌ أو تعب أو نصَبٌ، فإنها مع هذا عزيزة على الإنسان، لا يرضى لها الضياع ولا الهوان.

ومعلوم أن الوطن بمؤسساته وتراثه، وبحضارته وخيراته لا تكون هذه الأشياء هي الجائرة، ولكن مراد الشاعر أن الذين فيها قد يجورون، فلا يصح أن يكون هذا مسوغًا للإنسان أن يكره الوطن برمَّته ولا أن يكون حربًا عليه، بل تظل بلاده عزيزة عليه.

كما أن أهل الإنسان وعشيرته، قد يبخلون عليه، فلا يكون بخلهم أو بخل أحدهم مسوغًا له أن يبغضهم، بل عليه أن ينظر إلى زوايا

(١) اختلف في نسبة هذا البيت بين أبي فراس الحَمْداني وابن الرومي وأحمد شوقي. لكن الصواب أنه للشريف قتادة ابن إدريس بن مطاعن الحسني القرشي أمير مكة (ت ٦١٧ هـ). انظره في قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان للقلقشندي ١٦٢، شذرات الذهب لابن العماد ٧/ ٥٤٧، سمط النجوم العوالي للعصامي ٤/ ٢٢٢٤، لكن برواية:

«بلادي وإن هانت عليَّ عزيزة ** ولو أنني أعرى بها وأجوع».

أخرى ناله من خلالها وبسببهم خير كثير، فقد تَربَّى بخيرهم ونشأ في جوارهم، وإن ضنوا عليه في جانب، فقد كانوا كرامًا في جوانب أخرى. ومن هنا تغنى الشعراء بحب الأوطان، وبالتفاني في سبيل رفعتها وسؤددها، قال أمير الشعراء أحمد شوقي:

وطني لو شـغلت بالخلد عنه
نازعتني إليه في الخلد نفسي [(١)]

إن الإنسان المؤمن يحب وطنه، ويظل وفيًّا له، منافحًا عنه، وعونًا لأهله في السراء والضراء، يعز عليه أن يشقى الوطن أو أحد من أهله مهما كانت الأحوال.

إن الإنسان المؤمن محب لوطنه، وفيٌّ له، متعاون مع أهله، يدافع عنه، ويعزُّ عليه عَنَتُ الوطن، أو شقاوته أو ترويعه أو إرهاب أحد بنيه، بل يحب له الأمن والاستقرار، فالمؤمن مَن أَمِنه الناس على دمائهم وأموالهم وأعراضهم.

روى الدينوري عن الأصمعي قال: قالت الهند: «ثلاث خصال في ثلاثة أصناف من الحيوان؛ الإبل تحن إلى أوطانها وإن كان عهدها بها بعيدًا، والطير إلى وَكْره وإن كان موضعه مجدبًا، والإنسان إلى وطنه وإن كان غيره أكثر له نفعًا»[(٢)].

(١) الشوقيات ٢/ ٤٥.
(٢) أخرجه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم (ط. مشهور آل سلمان) ٢/ ٢٠٩ (٣٣٣).

وعن الأصمعي قال: سمعت أعرابيًّا يقول: «إذا أردت أن تعرف الرجل فانظر كيف تحنُّنُه إلى أوطانه، وتَشوُّقُه إلى إخوانه، وبكاؤه على ما مضى من زمانه»(١).

وأما بالنسبة للوطن العام الكبير وهو الإنسانية جمعاء، فيجب على جميع الناس أن يتعارفوا ويتآلفوا ويتعاونوا، قال الله تعالى: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ﴾

[الحجرات: ١٣] .

وإن واجب بني آدم في كل الأرض ألا يتصارعوا وألا يتنازعوا، بل عليهم أن ينظروا إلى أنفسهم على أنهم أبناء أب واحد وأم واحدة. ﴿إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ [الحجرات: ١٣].

آدم والد الجميع، فحمقٌ وضلال تفاخرُ الأبناء، وإذا كنا نتنادى إلى نشر الأمان والاطمئنان في الأرض، انطلاقًا من أننا أبناء أب واحد وأم واحدة على مستوى الإنسانية جمعاء.

فإن الواجب كذلك ألا تشتعل الحروب ولا تنتشر أسلحة الدمار الشامل، وبدل أن تبدد الأموال الطائلة على أسلحة الدمار، تنفق على رفع مستوى حياة الناس وإشباع البطون الجائعة ونشر الخير والأمان.

* * *

(١) أخرجه الدينوري في المجالسة وجواهر العلم ٢/ ٢٠٨ (٣٣٢)، وأخرجه ابن أبي حاتم الرازي في آداب الشافعي ومناقبه ص ١٠١ من كلام الإمام الشافعي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

عظمة الإسلام في التعامل مع غير المسلمين

أ.د / عبد الفتاح عبد الغني العواري (*)

لم يعرف التاريخ أمة من الأمم سوّت المخالفين لها في دينها بأبنائها والمنتسبين لها في شأن قوانين العدالة ونَوال حظوظ الحياة بقاعدة (لهم ما لنا وعليهم ما علينا)، مع بقائهم على دينهم وعاداتهم ـ مثل أمة الإسلام، وإن دل ذلك على شيء فإنما يدل على عظمة الإسلام التي تتجلى في سماحته في معاملة غير المسلمين بمختلِف أصنافهم ودياناتهم من أهل الكتاب وغيرهم دليلًا واضحًا وبرهانًا ساطعًا على احترام الإسلامِ الأديانَ الأخرى.

مما تذهب معها كل الدعاوى الباطلة التي يحاول أن يُلصقها به أعداؤه، معتبرين أن الإسلام دين إرهاب وعنف وتعصب.

لقد جاء الإسلام ليكون رحمة للعالمين، وليسقط الأغلال والعَنت الذي كان على من كان قبلنا من أهل الشرائع السابقة، وفي تشريعاته الحكيمة مظاهر بينة للرحمة والسماحة مع غير المسلمين.

(*) مجلة الأزهر، عدد شهر ذو القعدة ١٤٣٦هـ/ سبتمبر ٢٠١٥م، الجزء (١١).

وهذه السماحة التي جاء بها الإسلام من المعاني العظيمة التي تتواءم مع عالميته وخلوده، وتجعله مصلحًا لكل زمان ومكان، لسائر الأمم والشعوب.

والسماحة في اللغة: اليسر والسهولة. ذكر ابن فارس في معجم «مقاييس اللغة»: أن السين والميم والحاء أصلٌ صحيحٌ يدل على سلاسة وسهولة[1]، وهي تعني التسامح مع الغير في المعاملة، أيًّا كان ذلك الغير مسلمًا أو غير مسلم.

تعاليم الإسلام تحترم الأديان الأخرى:

لقد جاءت نصوص القرآن الكريم تقرر أن من سنة الله تعالى في خلقه أن تنوعت أجناسهم وألسنتهم وألوانهم كما تنوعت دياناتهم، وأن الخلاف باقٍ بقاء الإنسان على هذه الأرض، وأن التعدد والتنوع مما مضى به القدَر الإلهي، قال تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَءَامَنَ مَن فِي ٱلْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا﴾ [يونس: ٩٩]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٨ - ١١٩].

ولا يُتصوّر مع وجود ذلك الاختلاف أن ينعزل المجتمع المسلم عن غيره من المجتمعات.

---

(١) معجم مقاييس اللغة لابن فارس، مادة (س. م. ح) ٣/ ٩٩.

ولذلك فقد جاء الإسلام لينظم عَلاقة المسلم مع غيره من بني جنسه من المسلمين وغير المسلمين. ومن أهم سمات هذه العلاقة ما يلي:

لا إكراه في الدين:

كفل الإسلام حرية التدين لكل فرد، فلا إكراه في الدخول في الإسلام إلا بعد القناعة التامة بهدايته، فلكل ذي دينٍ دينُه لا يُجبر على تركه ليتحول منه إلى غيره، وقد أبان القرآن عن ذلك المعنى بقوله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة: ٢٥٦]، ونهى الله تعالى عن إكراه الناس للدخول في هذا الدين بقوله سبحانه : ﴿وَلَوۡ شَآءَ رَبُّكَ لَأٓمَنَ مَن فِي ٱلۡأَرۡضِ كُلُّهُمۡ جَمِيعًاۚ أَفَأَنتَ تُكۡرِهُ ٱلنَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُواْ مُؤۡمِنِينَ﴾ [يونس : ٩٩]. قال الإمام ابن كثير عند تفسير قوله: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ﴾، أي: «لا تُكرهوا أحدًا على الدخول في دين الإسلام، فإنه بيّنٌ واضحٌ، جَليٌّ دلائلُه وبراهينُه، لا يحتاج إلى أن يُكره أحدٌ على الدخول فيه»[(١)] أهـ. وسبب نزول هذه الآية الشريفة يظهر جانبًا من احترام الإسلام لغيره من الأديان الأخرى، فعن ابن عباس رضي الله عنهما، قال: كانت المرأة من الأنصار تكون مِقْلاتًا[(٢)] - أي يموت ولدها - فتجعل على

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (١/ ٦٨٢).
(٢) اشتقاق الكلمة من القلَت بمعنى: الهلاك، انظر: غريب الحديث لابن قتيبة ٢/ ٥٦٤، ٥٦٥، تهذيب اللغة للأزهري (ق . ل . ت) ٩/ ٦٤.

نفسها إن عاش لها ولد أن تُهوِّدَهُ – أي تجعله يهوديًا – فلما أُجليت بنو النَّضير، كان فيهم من أبناء الأنصار، فقالوا: لا ندع أبناءنا – أي نتركهم يعتنقون اليهودية، فأنزل الله عز وجل: ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾[١]، ويُفهم من ذلك أنه لا إرغام لأحد على الدخول في الإسلام حتى لو كان المرُغَم ابنًا لا يُشكّ في شفقة أبيه عليه بل من هداه الله للإسلام، وشرح صدره، ونوّر بصيرته، دخل فيه على بينة، ومن أعمى الله قلبه وختم على سمعه وبصره، فإنه لا يفيده الدخول في الدين مُكرهًا مجبورًا.

ومن المقرر عند الفقهاء أنه لو أُكره أحد على الدخول في الإسلام فإنه لا يصح إسلامه.

قال ابن قدامةَ في المغني: «وإذا أُكره على الإسلام من لا يجوز إكراهه كالذمي والمستأمن فأسلم لم يثبت له حكم الإسلام حتى يوجد منه ما يدل على إسلامه طوعًا». وبهذا قال أبو حنيفة والشافعي[٢] أهـ، وكما منح الإسلام الحرية لغير المسلمين في البقاء على دينهم، أباح لهم أيضًا ممارسة شعائرهم الدينية الخاصة بهم. وتأملوا في هذه القصة التي حدثت على عهد رسول الله ﷺ، لقد قدم عليه في المدينة وفد نجران ـ وهم من النصارى، فدخلوا عليه

(١) أخرجه أبو داود ٣/ ٥٨ (٢٦٨٢) موقوفًا على ابن عباس رضي الله عنهما.
(٢) المغني لابن قدامة ١٢/ ٢١٩.

مسجده بعد العصر، فحان وقت صلاتهم، فقاموا يصلون في مسجد الرسول ﷺ، فأراد الناس منعهم، فقال رسول الله ﷺ : دعوهم، فاستقبلوا المشرق فصلَّوا صلاتهم(١)، وهذه القصة - كما ترى - خيرُ دليلٍ على احترام الإسلامِ الأديانَ الأخرى، لقد تركهم رسول الله ﷺ يمارسون شعائرهم، وأمر الصحابة بتركهم يصلون في مسجده.

العدل:

لقد أوجبت تعاليم الإسلام على المسلمين سلوك العدلِ في التعامل مع غيرهم، ولم تجعل الاختلاف في الدين سببًا في الظلم أو التعدي، بل جعلت العدل مع المخالف دليلًا على التقوى التي رُتّب عليها أعظمُ الجزاء، كما قال الله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلۡقِسۡطِۖ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعۡدِلُواْۚ ٱعۡدِلُواْ هُوَ أَقۡرَبُ لِلتَّقۡوَىٰۖ﴾ [المائدة: ٨] .

فالأمر بالعدل بين الناس جميعًا دون النظر إلى ذواتهم أو أجناسهم أو دينهم أو حَسَبِهم. والدليل على ذلك: أن الله أمر رسوله ﷺ أن يحكم بالعدل إن جاءه أهل الكتاب يُحكّمونه بينهم، فقال: ﴿وَإِنۡ حَكَمۡتَ فَٱحۡكُم بَيۡنَهُم بِٱلۡقِسۡطِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلۡمُقۡسِطِينَ﴾ [المائدة: ٤٢].

(١) أخرجه ابن إسحاق في المغازي كما في سيرة ابن هشام ١/ ٥٧٤، وقال ابن رجب في فتح الباري ٣/ ٢٤٤: «منقطع ضعيف» - وابن سعد في الطبقات الكبرى ١/ ٣٥٧، وصحح ابن القيم الواقعة في أحكام أهل الذمة ١/ ٣٩٧.

بل لقد شدد رسول الله ﷺ في الوعيد على من ظلم معاهدًا، وأخبر أنه سيخاصمه يوم القيامة، ولا شك أن من يخاصمه رسول الله فقد خاب وخسر.

روي عن صفوانَ بنِ سُلَيم عن عِدّةٍ من أبناء أصحاب رسول الله ﷺ عن آبائهم عن رسول الله ﷺ قال: «أَلَا من ظلم معاهدًا أو انتقصه أو كلَّفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئًا بغير طِيبِ نفسٍ فأنا حَجيجُه ـ أي أنا الذي أخاصمه وأحاجُّه ـ يوم القيامة»[(١)].

البر والإحسان:

في القرآن آيات كثيرة في الأمر بالبر والصلة والإحسان والعدل والقسط والوفاء بالعهد، والنصوص في ذلك مطلقة تستوعب كل أحد، قال تعالى: ﴿وَأَحْسِنُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ١٩٥]، وقال: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ [البقرة: ٨٣]. وفي ظل هذا المفهوم العام للإحسان أمر الإسلام بالإحسان إلى غير المسلمين الذين لم يُعرف لهم أذيَّةٌ للمسلمين ولا قتال لهم، قال تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓاْ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

ومعنى الآية: «لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم في الدين من جميع أصناف الملل والأديان، أن تَبَرُّوهم وتَصِلوهم وتقسطوا إليهم.؛ لأن بِرَّ المؤمنِ من أهل الحرب مِمَّن بينه وبينه قرابةُ نَسَبٍ،

(١) أخرجه أبو داود ٣/ ١٧٠ (٣٠٥٢) من حديث جمعٍ من الصحابة غير مُعيّنين.

أو ممن لا قرابة بينه وبينه ولا نَسَب غيرُ مُحَرّمٍ ولا منهيٍّ عنه .، إن الله يحب المنصفين الذين ينصفون الناس ويعطونهم الحق والعدل من أنفسهم، فيَبَرُّون مَن بَرَّهم، ويحسنون إلى من أحسن إليهم».[1] بل فوق ذلك أَمَرَ الإسلام بصلة الأقربين من غير المسلمين والإنفاق عليهم وبرهم والإحسان إليهم، روى البخاري في صحيحه عن أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قالت : قدمت عليَّ أمي وهي مشركة في عهد رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فاستفتيتُ رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قلتُ: إن أمي قَدِمت وهي راغبةٌ، أفأَصِلُ أمي؟ قال: «نعم، صِلي أمَّك»[2].

حرية التعامل:

أباح الإسلام التعامل مع غير المسلمين في البيع والشراء والأخذ والعطاء، وشرع للمسلم أن يهدي إليهم، ويقبل هديتهم، ويواسيهم عند المصيبة، ويهنئهم عند الفرح، ويعود مريضهم.

وسوف أذكر صورًا من ذلك مع الدليل عليها حتى يَتضِحَ للجميع مدى سماحة الإسلام في التعامل مع غير المسلمين، واحترامه للآخَر والمُختلِف:

١ـ البيع والشراء: يجوز أن يبيع المسلم لغير المسلم وأن يشتري منهم. عن عبد الرحمن بن أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: كنا مع النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ثم جاء

(١) تفسير الطبري ٢٣/ ٣٢٣.

(٢) أخرجه البخاري ٣/ ٢١٥ (٢٦٢٠)، ومسلم ٢/ ٦٩٦ (٥٠ – ١٠٠٣) من حديث أسماء بنت أبي بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، ومعنى راغبة: طامعة تسألني شيئا، النهاية في غريب الحديث (ر.غ.ب).

رجلٌ مشركٌ مُشْعانٌّ طويلٌ بغنمٍ يَسوقُها فقال النبي ﷺ: «بيعًا أم عطيّةً» أو قال: «أم هبةً؟» فقال: لا، بيعٌ، فاشترى منه شاةً[(١)].

٢ـ الرهن عندهم: عن عائشة رضي الله عنها قالت: تُوفي رسول الله ﷺ ودِرْعُهُ مرهونةٌ عند يهودي بثلاثينَ، يعني: صاعًا مِن شَعيرٍ[(٢)].

٣ـ حِلّ ذبائحهم وجواز النكاح من نسائهم، قال تعالى: ﴿ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ﴾

[المائدة: ٥].

٤ـ قَبول هدايا غير المسلمين: يباح للمسلم أن يُهاديَهم وأن يقبل هديتهم. فقد قبل رسول الله ﷺ هدية زينب بنت الحارث اليهودية امرأة سَلام بن مِشْكَم في خيبر، حيث أهدت له شاةً مَشويّةً قد وضعت فيها السُّم[(٣)]، وقرر الفقهاء قبول الهدايا من الكفار بجميع أصنافهم حتى

---

(١) أخرجه البخاري ٣/ ١٠٥ (٢٢١٦)، ومسلم ٣/ ١٦٢٦ (١٧٥ - ٢٠٥٦) من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر رضي الله عنهما، والمشعان المنتفش الرأس، وقيل: الأشعث المغبرُّ، انظر فتح الباري لابن حجر ١/ ١٣٩، تهذيب اللغة للأزهري (ش. ع. ن) ١/ ٢٧٥.

(٢) أخرجه البخاري ٤/ ٤٩ (٢٩١٦) من حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها.

(٣) أخرجه البخاري ٣/ ٢١٤ (٢٦١٧) ومسلم ٤/ ١٧٢١ (٤٥ - ٢١٩٠) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

أهل الحرب، قال ابن قدامة: «يجوز قَبول هدية الكفار من أهل الحرب؛ لأن النبي ﷺ قَبِلَ هديّةَ المقَوْقِسِ صاحبِ مصرَ»(١).

٥ـ عيادتهم: يباح للمسلم أن يعود مريضهم. روى البخاري عن أنس رضي الله عنه أن غلامًا ليهودَ كان يخدُم النبي ﷺ فمرض فأتاه النبي ﷺ يعوده فقال: «أَسلِمْ» فأَسلَمَ(٢).

حرمة الدماء وحماية الأموال والأعراض:

حفظ الإسلام وضمِن لغير المسلمين في المجتمع الإسلامي أمنَهم على أنفسهم وأموالهم وأعراضهم فلا يُتعرض لها بسوء لا من المسلمين ولا من غيرهم، ما داموا بين المسلمين. وشدد الوعيد وأغلظ في العقوبة لمن استباح حرمة دمائهم أو تعرض لهم بالأذى، قال ﷺ: «مَن قتل معاهدًا لم يَرَحْ رائحةَ الجنة، وإنّ رِيحَها تُوجَدُ من مسيرة أربعينَ عامًا»(٣)، ومن هنا، فإن قتل السائحين الذين يأتون لزيارة بلادنا حرام شرعًا؛ لأن تأشيرة دخولهم بمثابة عقد أمان لهم تمنحهم إياه الدولة، والله تعالى يقول: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَٰمَ ٱللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُۥ﴾ [التوبة: ٦]، ومن المقرر شرعًا أنه إذا أجار أحد من المسلمين مشركًا في دار الإسلام

(١) المغني لابن قدامة ١٣ / ٢٠٠.
(٢) أخرجه البخاري ٧/ ١٥٢ (٥٦٥٧) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.
(٣) أخرجه البخاري ٤/ ١٢٠ (٣١٦٦) من حديث عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، ومعنى يرح: يشم ريحها، النهاية في غريب الحديث (ر.و.ج).

ـ ولو كان المُجيرُ امرأةً ـ فيجب التزام جميع المسلمين بذلك، عن أبي مُرَّةَ مولى أم هانئ بنت أبى طالب أنه سمع أم هانئ بنت أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا تقول: ذهبتُ إلى رسول الله ﷺ عام الفتح، فوجدته يغتسل، وفاطمة ابنته تستره، قالت: فسلمتُ عليه، فقال: من هذه؟ فقلت: أنا أم هانئ بنت أبي طالب، فقال: «مرحبًا بأم هانئ»، فلما فرغ من غسله، قام فصلى ثماني ركعات، مُلتحفًا في ثوبٍ واحدٍ، فلما انصرف، قلت: يا رسول الله، زعم ابنُ أمي أنه قاتلٌ رجلًا قد أَجَرْتُهُ، فلانَ بن هُبيرة، فقال رسول الله ﷺ: «قد أَجرْنا مَن أَجْرتِ يا أم هانئ»[(١)].

قوة عَلاقة الإسلام بالرسالات السماوية السابقة:

الإسلام بمفهومه العام الذي هو إسلامُ العبدِ نفسَه لله طوعًا بامتثال أوامره واجتناب نواهيه ـ هو دعوة كل الرسل، ويتناول إطلاقه جميع الأديان التي أمر الله تعالى رسله أن يبلغوها للناس، ومِن ثَمَّ، فإن الإسلام بمفهومه هذا اسمٌ للدين الإلهي الذي جاء به جميع الأنبياء والرسل، وانتسب إليه أتباعهم جميعًا، يقول نوحٌ عَلَيْهِ السَّلَامُ لقومه: ﴿فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ ۖ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ ۖ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٧٢].

(١) أخرجه البخاري ١/ ١٠٠ (٣٥٧)، ومسلم ١/ ٤٩٨ (٨٢ - ٣٣٦) من حديث أم هانئ بنت أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، وتعني: أخاها علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، كما صرّحت به رواية مسلم.

ويوصي يعقوبُ عليه السلام بنيه قائلًا: ﴿ وَوَصَّىٰ بِهَآ إِبْرَٰهِـۧمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَـٰبَنِىَّ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰ لَكُمُ ٱلدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴾

[البقرة: ١٣٢].

ويجيب أبناء يعقوب أباهم قائلين كما حكى القرآن:

﴿ أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَـٰهَكَ وَإِلَـٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَـٰعِيلَ وَإِسْحَـٰقَ إِلَـٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴾ [البقرة: ١٣٣] .

ويقول موسى عليه السلام لقومه:

﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ يَـٰقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوٓا۟ إِن كُنتُم مُّسْلِمِينَ ﴾

[يونس: ٨٤] .

ويقول الحواريون لعيسى عليه السلام:

﴿ فَلَمَّآ أَحَسَّ عِيسَىٰ مِنْهُمُ ٱلْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَٱشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾

[آل عمران: ٥٢].

ويقول بعض أهل الكتاب حين سمع القرآن: ﴿ وَإِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِهِۦٓ إِنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّنَآ إِنَّا كُنَّا مِن قَبْلِهِۦ مُسْلِمِينَ ﴾ [القصص: ٥٣]، فجميع الأديان السماوية ملةٌ واحدة متحدة في أصول الشرائع، مختلفة في بعض التكاليف والأعمال.

وقد بيَّن القرآن هذه الحقيقة فقال: ﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحًا وَٱلَّذِيٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِۦٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓ ۖ أَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا۟ فِيهِ ۚ كَبُرَ عَلَى ٱلْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ ۚ ٱللَّهُ يَجْتَبِىٓ إِلَيْهِ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٣].

فعَلاقة الإسلام إذًا بالأديان الأخرى عَلاقة الشيءِ بنفسه، ما دام جوهرُه هو جوهرَ كل الرسالات، ودعوةُ رسوله هي دعوة كل الرسل؛ ولذا جعل القرآن من عناصر الإيمان: الإيمان بجميع الرسل، وبجميع الكتب السماوية السابقة، فقال:

﴿قُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِىَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة: ١٣٦].

وقال: ﴿ءَامَنَ ٱلرَّسُولُ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِ مِن رَّبِّهِۦ وَٱلْمُؤْمِنُونَ ۚ كُلٌّ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَكُتُبِهِۦ وَرُسُلِهِۦ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّن رُّسُلِهِۦ ۚ﴾ [البقرة: ٢٨٥].

قوة عَلاقة القرآن بالكتب السماوية السابقة:

حدَّد القرآن عَلاقته بالكتب السماوية السابقة في قوله تعالى: ﴿وَأَنزَلْنَآ إِلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ ٱلْكِتَٰبِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ ۖ﴾ [المائدة: ٤٨]، والمفهوم من الآية الكريمة أن علاقة القرآن بالكتب السماوية السابقة هي: التصديق لها، والهيمنة عليها.

ومعنى تصديق القرآن للكتب السماوية السابقة: أن القرآن جاء مصدّقًا ومؤكّدًا لما قبله من الكتب في التشريعات التي لا تتغير ولا تتبدل، أما التشريعات الموقوتة بآجالٍ محدَّدة، فهذه تنتهي بانتهاء وقتها، ولكلِّ أُمة شرائعُ تتفق مع ظروفها، وقد جاء القرآن بتعديل بعض أحكام التوراة والإنجيل، وأعلن الرسول ﷺ أنه جاء لِيُحلَّ للناس كل الطيبات، ويحرم عليهم الخبائث، ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم، قال سبحانه: ﴿ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وهيمنة القرآن على تلك الكتب السماوية تعني الحراسة الأمينة عليها، والحماية لها من الدخيل الذي يطرأ عليها ويُدَسُّ فيها، وإبراز الحقائق التي أُخفيت منها. فقد نفى القرآن وجود أمورٍ زائفة في تلك الكتب، وتحدى ادعاءَ وجودِها، كما أَبرز أمورًا أُخفيت منها، قال تعالى: ﴿كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [آل عمران: ٩٣].

وقال سبحانه: ﴿ يَـٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَـٰبِ قَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمۡ كَثِيرٗا مِّمَّا كُنتُمۡ تُخۡفُونَ مِنَ ٱلۡكِتَـٰبِ وَيَعۡفُواْ عَن كَثِيرٖۚ قَدۡ جَآءَكُم مِّنَ ٱللَّهِ نُورٞ وَكِتَـٰبٞ مُّبِينٞ ﴾ [المائدة: ١٥]، فعَلاقة القرآن بالكتب السابقة: عَلاقةُ تأييدٍ وتصديق لها في أصول العقائد، وعلاقة تصحيح لما طرأ عليها ودُسَّ فيها.

وفي بيان ذلك وتجليته، يقول العلّامة ابن عاشور عليه الرحمة(١): «وفُسِّر المهيمن بالعالي والرقيب، ومن أسمائه تعالى المهيمن».

وقد أشارت الآية إلى حالتي القرآن بالنسبة لما قبله من الكتب، فهو مؤيد لبعض ما في الشرائع مقرر له؛ من كل حُكْمٍ كانت مصلحته كليّةً لم تختلف مصلحته باختلاف الأمم والأزمان، وهو بهذا الوصف مصدق، أي محقق ومقرر، وهو أيضًا مبطِل لبعض ما في الشرائع السالفة وناسخ لأحكام كثيرة؛ مِن كل ما كانت مصالحه جزئيّةً مؤقّتةً مراعًى فيها أحوالُ أقوام خاصة.

قوة عَلاقة النبي ﷺ بإخوانه من الأنبياء السابقين:

أخذ الله العهد على كل نبي إذا جاء رسول مصدق لما معه أن يؤمن به وينصره، قال تعالى: ﴿ وَإِذۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ

(١) التحرير والتنوير ٥/ ١٢٣، ١٢٤.

ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴾ [آل عمران: ٨١]، وقد بعث الله نبيه محمدًا ﷺ خاتمًا للأنبياء والمرسلين، ومُصدّقًا لجميع من سبقه من الرسل الأكرمين، قال تعالى: ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّۦنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وقد وضح الرسول ﷺ موقفه من إخوانه الأنبياء السابقين عليه، فقال: «إن مَثَلي ومثلَ الأنبياء من قبلي كمثل رجل بنى بيتًا فأحسنه وأجمله، إلا موضعَ لَبِنَةٍ من زاويةٍ، فجعل الناس يطوفون به، ويَعجبون له، ويقولون هلّا وُضعت هذه اللبنةُ؟ قال: فأنا اللبنة، وأنا خاتم النبيين»[١].

سماحة الإسلام مع المسيحية ونماذج ذلك:

شهد التاريخ أروع الأمثلة على سماحة الإسلام في معاملة أصحاب الديانة المسيحية، فهم أقربُ مودّةً للمؤمنين كما قال الله تعالى: ﴿ لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ ﴾ [المائدة:٨٢]، ومنذ فجر الإسلام والمودة قائمة بين

(١) أخرجه البخاري ٤/ ٢٢٦ (٣٥٣٥)، ومسلم ٤/ ١٧٩١ (٢٢ ـ ٢٢٨٦) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه.

المسلمين والنصارى، ولا أدلَّ على ذلك من حزن المسلمين يوم أن انتصر الفرس – وهم المجوس عبدة النار – على الروم – وهم النصارى – فأنزل الله صدر سورة سماها «الروم» يبشر المسلمين بنصر إخوانهم من أهل الكتاب على الفرس، وقد تحقق ما بشر به القرآن عام الحديبية [(١)]، يقول سبحانه: ﴿الٓمٓ ۝١ غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ﴾ [الروم: ١ – ٦].

وفي خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه كتب خالد بن الوليد رضي الله عنه في عقد الذمة لأهل الحِيرة بالعراق – وكانوا من النصارى –: «وجعلتُ لهم أيُّما شيخٍ ضَعُفَ عن العمل، أو أصابته آفةٌ من الآفات أو كان غنيًّا فافتقر، وصار أهل دينه يتصدقون عليه؛ طرحتُ جزيتَه، وعِيل من بيت مال المسلمين»[(٢)]، وهذه صورة مشرقة تبرز تقرير الإسلام للتكافل الاجتماعي مع مخالفيه، فهو يتسامى بمن يعيشون في كنفه ويَحوطهم برحمته وإحسانه عندما يحتاجون إلى مواساة لأي سبب من

(١) تفسير الطبري ٢٠/ ٧١، ٧٢.
(٢) كتاب الخراج لأبي يوسف ١٥٧، ١٥٨.

الأسباب، بل يجعلهم عيالًا على بيت مال المسلمين.

فالإسلام لا يرضى أن يُذِلَّ رجلًا من أهل الذمة النصارى وهو يحيا في كنف الإسلام فيعيش على الصدقة يتكفف الناس ولكن الإسلام يحميه ويكرمه ويوجب على الدولة أن تعوله وتعول عياله .

ومن صور السماحة في المعاملة مع النصارى:

ما روي عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أنه لما قدم الجابيةَ من أرض الشام، استعار ثوبًا من نصراني، فلبسه، حتى خاطوا له قميصه، وغسلوه، وتوضأ من جَرَّةٍ نصرانيةٍ(١) .

ومن مفاخر الإسلام أن سوّى بين المسلم وغير المسلم في القضاء، فلو تنازع مسلم ونصراني لا يُقضى للمسلم؛ لكونه مسلمًا، ولا يُظلم النصراني؛ لكونه نصرانيًّا، بل يعطي الإسلام الحق لصاحبه أيًّا كان دينه أو جنسه، وخير دليل على ذلك: ما حدث لأمير المؤمنين علي ابن أبي طالب رضي الله عنه عندما وجد درعه عند رجل نصراني، فأقبل به إلى شريح القاضي يخاصم النصراني، قال علي رضي الله عنه: يا شريح، هذه الدرع درعي ولم أَبِعْ ولم أَهَبْ، فقال شريح للنصراني: ماذا تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟ فقال النصراني: ما الدِّرعُ إلّا دِرعي، وما أمير المؤمنين عندي بكاذب، فالتفت شُرَيحٌ إلى أمير المؤمنين قائلًا: يا أمير

(١) ذم الموسوسين لابن قدامة ٣٩، وانظر فتح الباري لابن حجر ١/ ٢٩٩، والجرَّة: إناء من خزف.

المؤمنين، هل من بيِّنة؟ فضحك علي رَضِوَاللَّهُعَنْهُ، وقال: أصاب شريح، ما لي بيِّنة، فقضى بها شريح للنصراني، فأخذها النصراني، ومشى بها خطوات ثم رجع فقال: أمّا أنا فأشهد أن هذه أحكام الأنبياء، أمير المؤمنين يخاصمني إلى قاضيه، وقاضيه يقضي عليه! أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله، الدرعُ والله درعك يا أمير المؤمنين، اتبعتُ الجيشَ وأنت منطلق إلى صِفِّينَ فخرجَتْ من بعيرك الأَوْرَق. فقال: أمَا إذْ أسلمتَ فهي لك[1]، وهذه الواقعة تغني عن أي تعليق.

ومن أمثلة ذلك أيضًا: أن أحد أقباط مصر شكا إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ ابن والى مصر: عمرو بن العاص رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الذي لطم ابنه عندما غلبه ابن القبطي في السباق، وقال: أنا ابن الأكرمين. فأسرع عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ بإحضار والي مصر وابنه إلى مكة في موسم الحج، وأعطى عمر رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ الدِّرَّة لابن القبطي وأمره أن يقتصَّ من ابن الأكرمين، ثم قال لعمرو رَضِيَٱللَّهُعَنْهُ كلمته المأثورة: «متى تَعبّدتم الناسَ، وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟»[2].

(١) أخرجه ابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٢/ ٤٨٦ ، ٤٨٧ وذكره ابن كثير في البداية والنهاية ١١/ ١٠٧، ١٠٨.
وصفين: موضع كانت فيه حرب بين علي ومعاوية رَضِيَٱللَّهُعَنْهُمَا، انظر معجم البلدان ٣/ ٤١٤ ، ٤١٥ ، والأورق: الأسمر، انظر النهاية في غريب الحديث والأثر ٥/ ١٧٥.
(٢) أخرجه ابن عبد الحكم في فتوح مصر وأخبارها ١٨٣ والدِّرَّة: السَّوْط، والجمع

وصية النبي ﷺ بأقباط مصر خاصة :

أوصى رسول الله ﷺ بأقباط مصر خاصّةً؛ لأن لهم ذِمَّةً ورحمًا، عن أبي ذرٍّ عن رسول الله ﷺ قال: «إنكم ستفتحون مصر، وهي أرض يُسمَّى فيها القيراط، فإذا فتحتموها فأحسِنوا إلى أهلها؛ فإن لهم ذِمّةً ورَحِمًا»[١].

قال العلماء: الرحم التي لهم كون هاجر أم إسماعيل عليه السلام منهم، كما أن لهم صهرًا، وهو كون مارية أم إبراهيم ابن رسول الله ﷺ منهم.

سماحة الإسلام مع اليهودية ونماذج ذلك:

تأسس المجتمع الإسلامي الأول وعاش في كنفه اليهود بعهدٍ مع المسلمين أبرمه رسول الله ﷺ معهم عُرف بوثيقة المدينة، وقد تضمنت هذه الوثيقة أن يعيش المسلمون واليهود يتبايعون ويتعاملون ويدافعون عن المدينة ضد أي خطر خارجي. وكان رسول الله ﷺ غاية في الحِلْم معهم والسماحة في معاملتهم حتى نقضوا العهد وخانوا، أما من يعيشون بين المسلمين يحترمون قِيَمهم ومجتمعهم فلهم الضمان والأمان.

دِرَر. انظر المصباح المنير (د. ر. ر) ١٩١.

(١) أخرجه مسلم ٤/ ١٩٧٠ (٢٢٧ – ٢٥٤٣) من حديث أبي ذر رضي الله عنه، قال النووي في شرح مسلم ١٦/ ٩٧ : «قال العلماء: القيراط جزء من أجزاء الدينار والدرهم وغيرهما، وكان أهل مصر يكثرون من استعماله والتكلم به».

ومن أمثلة سماحة الإسلام في معاملتهم:

١ـ عيادة النبي ﷺ للغلام اليهودي الذي كان يخدمه، فعن أنس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أن غلامًا ليهودَ كان يخدم النبي ﷺ فمرض فأتاه النبي ﷺ يعوده فقال: «أسلم»، فأسلم(١).

٢ـ تأكيد إكرامهم إذا كانوا جيرانًا: رُوي عن مجاهد قال: كنت عند عبد الله بن عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، وغلامه يسلخ شاة، فقال: يا غلامُ إذا فرغتَ، فابدأ بجارنا اليهودي، فقال رجل من القوم: اليهودي، أصلحكَ الله؟ قال: إني سمعت النبي ﷺ يوصي بالجار حتى خشينا أو رُئِينا أنه سيورِّثه(٢).

٣- إعانتهم إذا كانوا فقراءَ لا مال لهم: مرّ عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بباب قوم وعليه سائل يسأل: شيخٌ كبيرٌ ضرير البصر، فضرب عَضُدَه من خلفه، وقال: من أي أهل الكتاب أنت؟ قال: يهودي، قال فما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجةَ والسن، قال: فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله فرَضَخَ له بشيء من المنزل، ثم أرسل إلى خازن بيت المال، فقال: انظر هذا وضُرباءه، فو الله ما أنصفناه أن أكلنا شَبيبته ثم نَخذلُه عند الهَرَم: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلۡفُقَرَآءِ وَٱلۡمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]، والفقراء

---

(١) سبق تخريجه.
(٢) رواه البخاري في الأدب المفرد ٥٨ (١٢٨).

هم المسلمون، وهذا من المساكين من أهل الكتاب، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه(١) .

٤- المساواة بينهم وبين المسلمين في القضاء: سجل التاريخ نماذج رائدة لهذه المساواة التي تعد قمة ما وصلت إليه المعاملات الإنسانية العادلة في تاريخ البشرية جمعاء، فعندما شكا رجل من اليهود علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ للخليفة عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قال عمر لعلي: قم يا أبا الحسن، فاجلس بجوار خصمك، فقام علي وجلس بجواره، ولكن بدت على وجهه علامة التأثر، فبعد أنِ انتهى الفصل في القضية، قال عمر لعلي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أكرهتَ يا علي أن نُسوّيَ بينك وبين خصمك في مجلس القضاء؟ قال لا، ولكني تألمتُ؛ لأنك ناديتني بكنيتي وناديته باسمه فلم تُسَوِّ بيننا، ففي الكنية تعظيم، فخشيت أن يظن اليهود أن العدل ضاع بين المسلمين(٢) .

* * *

(١) الخراج لأبي يوسف ١٣٩ .
(٢) أخرجه ابن العديم في بغية الطلب في تاريخ حلب ٤/ ١٧٠٩ ، ١٧١٠ وليس عنده أن الرجل يهودي.

بر الوالدين

أ.د/ محمود عمارة(*)

يأخذ البر في الإسلام مداه الواسع حين لا ينحصر في بر الولد والديه؛ وإنما هو قبل ذلك أن يبر الوالدان ولدهما لتكتمل الدائرة وتتم النعمة.

وإذا كان هناك في الناس من نسميهم «اجتماعيين» قادرين على أن يشتروا العبيد بأموالهم، فهناك منهم طراز فريد قادر على أن يشترى الأحرار بحسن معاملتهم، وفي طليعتهم آباء صدق، غرسوا «فسيلة» البر في قلوب أولادهم فصارت من بعدُ شجرة ضخمة أُكُلها دائم وظلها.

أهمية البر:

يقول تعالى في سورة الأنعام: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا﴾ [الأنعام: ١٥١]. فقد كان من الممكن أن يُقال هنا: «ولا تسبوا الوالدين» مثلًا، ولكن السياق يطوي هذا؛ لأن الإساءة غير واردة، ولا متصورة بالمرة، وكذلك الأمر بالإحسان لم يرد هنا؛ لأن هذا الإحسان مقرر في

(*) مجلة الأزهر، عدد شهر شعبان ١٤٢٤ هـ / أكتوبر ٢٠٠٣م، الجزء (٨).

الفطرة السوية التي تبذله تلقائيًّا وبلا تكلف ومن ثمَّ فلا حاجة إلى الأمر به؛ ثقة بطبيعة الفطرة.

فالإحسان إلى الوالدين مقرر ابتداءً لكن المطلوب هو قمته هو ذروته، فلا ندخر وسعًا في الإحسان إلى الوالدين.

بر الآباء بأولادهم:

قبل الحديث عن بر الآباء بأبنائهم، نذكر طرفًا من بر الأحفاد، هذا البر الذي كان نهرًا فياضًا بالحنان حين لم يتوقف مدّه عند الأولاد، ولكنه تجاوزهم إلى الأحفاد.

وأسوتنا في ذلك رسول الله ﷺ، فعن أبي قتادة قال: خرج علينا النبي ﷺ وأُمامةُ بنت أبي العاص على عاتقه، فصلى فإذا رجع وضعها وإذا رفع رفعها[1].

وإنك لتلحظ من رحمته ﷺ وشفقته بحفيدته؛ أن اهتمامه بالصلاة التي يركز فيها كل اهتمامه، لم يُنسه حق الصغيرة في الحنان.

ولقد كان الموقف صعبًا يحتار فيه الإنسان بين عقله وقلبه. عقله الذي يفرض عليه أن يُقبل على صلاته بكل كيانه من حيث لا ثواب له على صلاته إلا ما عَقَله منها، ثم قلبه الموصول بالصغيرة التي هي بُضْعة منه.

ولقد كان من توفيق الله تعالى أن يستجيب لعقله وقلبه معًا،

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٨/٨ (٥٩٩٦)، ومسلم في صحيحه ٣٨٥/١ (٤١ - ٥٤٣)، وهذا لفظ البخاري.

كان إذا ركع يخشى عليها السقوط على الأرض فيتلطف بها فيضعها وكأنها كانت لشدة تعلقها به، لا تصبر في الأرض، فتجزع لمفارقته، فيجد سبيلًا ليحملها إذا قام، لقد كان ﷺ بين أمرين:

١ـ أن يحافظ على المبالغة في الخشوع.

٢ـ أن يراعي خاطر حفيدته المتعلقة به، فقدَّم الثاني على نحو لم يُبطل الأول.

وكان ﷺ بولده إبراهيم بارًّا حفيًّا، فعن أنس قال: أخذ النبي ﷺ إبراهيم فقبَّله وشمَّه[١].

وقد أخذ العلماء من ذلك جواز تقبيل الولد في كل عضو منه. فهو ريحان طيب الرائحة، وكذلك يجوز تقبيل الكبير - عند أكثر العلماء - ما لم يكن عورة[٢].

وكان ﷺ يقبِّل فاطمة -رضي الله عنها-، وكان أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقبِّل عائشة -رضي الله عنها-[٣]. وهكذا كانت الرحمة بالصغار صورة من صور البر بهم، وهو طريق لاحِبٌ[٤]، لا يضل سالكه، ولا يهتدي تاركه.

ولكن ناسًا جهلوا فلم يفهموا ذلك الدرس، فكان للرسول معهم موقف لفت أنظارهم فيه إلى أهمية أن يَبَرَّ الآباء أبناءهم، وإذا

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ١٠٥/٢ (١٣٠٣).
(٢) عمدة القاري شرح صحيح البخاري، للعيني ٩٨/٢٢.
(٣) شرح صحيح البخاري لابن بطال ٢١٢/٩، التوضيح لشرح الجامع الصحيح لابن الملقن ٢٩٦/٢٨.
(٤) الطريق اللاحب - واللحْب والملحوب - الواضح البين. تهذيب اللغة للأزهري (ل. ح. ب) ٥٨/٥.

كانوا يتنافسون في توفير الطعام؛ غذاء لأجسامهم، فأجدر بهم أن يجعلوا من الرحمة غذاءً لأنفسهم.

عن عائشة -رضي الله عنها- قالت: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فقال: تُقبِّلون الصبيان؟ فما نقبلهم! فقال النبي ﷺ: «أو أملِك لك أن نزَع الله مِن قلبك الرحمةَ»(١).

ولقد كان الدرس قاسيًا، ومن الحكمة أن يكون كذلك مع رجلٍ مَرَدت قبيلته على القسوة في معاملة بنيها، وحرمانهم من حقهم المشروع في الحنان، والذي لا يصير سويًّا إلا به.

وفي موقف آخر يروي أبو هريرة رضي الله عنه قال: قبَّل رسول الله ﷺ الحسن بن علي وعنده الأقرع بن حابس التميمي جالسًا، فقال الأقرع: إن لي عشرة من الولد، ما قبَّلت منهم أحدًا. فنظر إليه رسول الله ﷺ ثم قال: «من لا يَرحم لا يُرحم»(٢).

ولقد كان جواب رسول الله ﷺ هنا أخفَّ لهجةً من جوابه للأعرابي الآنف الذكر. فالأقرع من الناحية الاجتماعية: زعيم قومه، ومن الناحية النفسية: من المؤلفة قلوبهم، فإيمانه قلق غير ثابت.

ومن أجل ذلك تلطف الرسول في رده الذي كان عامًّا، ولم يكن مباشرًا، لقد نظر إليه أولًا نظرة يُفهم منها رفضه لما قال: ثم مرت فترةُ صمتٍ جاءت بعدها الموعظة عامة لا تصطدم بالإحساس، وقد

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٩/٨ (٥٩٩٨).
(٢) أخرجه البخاري ٨/٨ (٥٥٩٧)، ومسلم ١٨٠٨/٤ (٦٥ - ٢٣١٨). ويجوز في: «يَرحم» ضم الميم أوتسكينها على إرادة الشرط. انظر فتح الباري لابن حجر ٢٤٩/١٠.

استمر الأقرع مسلمًا بل وحسُن إسلامه.

في غزوة حُنين:

عن عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: قدِم على النبي ﷺ سَبْيٌ فإذا امرأة من السبي تحلب ثديها تسقي: إذا وجدت صبيًّا في السبي أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته. فقال النبي ﷺ: «أترون هذه طارحة ولدها في النار؟» قلنا: لا وهي تقدر على ألا تطرحه. فقال: «الله أرحمُ بعباده من هذه بولدِها»[١].

كانت هذه المرأة قد فقدت صبيها، وتضررت باجتماع اللبن في ثديها، فكانت إذا وجدت صبيًّا أرضعته ليخفف عنها. وفي الموقف دروس:

فمن دروس العقيدة:

١ - أن كل إنسان يعلِّق أمره بالله وحده.

٢ - وأن كل من فيه رحمة يقصد لأجلها، فالله تعالى أرحم منه.

ومن دروس الأخلاق:

إن الحياة بلا مبادئ تتحول إلى مَسْبعة[٢]، إلى غابة والناس فيها وحوش ضارية، أعني تصير حياتهم في موت غيرهم! ولقد كانت قيمة الإنسانية بارزة في هذا الموقف الذي لم تتخذ فيه هذه الأم غرضًا يتلهَّى به، وإنما كان هناك إشفاق عليها، وتقدير لغريزة الأمومة فيها.

(١) أخرجه البخاري ٩/٨ (٥٩٩٩)، ومسلم ٢١٠٩/٤ (٢٢ - ٢٧٥٤).
(٢) أي: ذات سباع.

ومن الناحية التشريعية:

جواز ارتكاب أخف الضررين كما يقرر العلماء هنا؛ لأنه ﷺ، لم يَنْهَ هذه المرأة عن إرضاع الأطفال الذين أرضعتهم، مع احتمال أن يكبر بعضهم فيتزوج بعض من أرضعته المرأة معه. ولكن لما كانت حالة الإرضاع ناجزة وخشيةُ المْحَرمية متوهَّمة، جاز ذلك الإرضاع، ولولا خشية هلاكها ما تركها ترضعهم. وإذًا فلا بأس من أن ترضع الكافرة صبيًّا مسلمًا.

بر الأبناء:

ولقد كان طبيعيًّا أن يردَّ الأبناء جميل آبائهم وأمهاتهم إليهم برًّا ووفاءً. قال المأمون: لم أجد أحدًا أبرَّ بأبيه من الفضل بن يحيى: كان أبوه لا يتوضأ إلا بماء ساخن فمنعه السجان من الوقود في ليلة باردة، فلما أخذ يحيى مضجعه من النوم قام ابنه الفضل إلى إناء من نحاس مملوء بماء فأدناه من المصباح، حتى استيقظ والده فتوضأ بالماء الساخن[1].

والمرأة على الطريق نفسه:

قال يحيى بن كثير: لما قدِم أبو موسى وأبو عامر على رسول الله ﷺ، فبايعوه وأسلموا قال: «ما فعلت امرأة منكم تُدعى كذا وكذا؟ قالوا: تركناها في أهلها. قال: «فإنه قد غُفر لها» قالوا: بم يا رسول

---

(١) حقوق الآباء على الأبناء، ٧٢. وانظر ربيع الأبرار ونصوص الأخيار للزمخشري ٤/٢٩٠.

الله؟ قال: «ببرها والدتها»، قال: كانت لها أم عجوز كبيرة، فجاءهم النذير أن العدو يريد أن يُغِير عليكم فجعلت تحملها على ظهرها فإذا أعيَت وضعتها ثم ألزقت بطنها ببعض أمها، وجعلت رجليها تحت رجليْ أمها من الرمضاء حتى نجت[(١)].

من الردود الجامعة المانعة:

قال رجل لليث بن سعد: إن أبي ببلاد السودان. وقد كتب إليَّ أن أذهب إليه. فمنعتني أمي. فقال له الليث: أطِعْ أباك ولا تَعْصِ أمَّك[(٢)].

ومن حكمة الرد هنا: الاحتفاظ بقيمة البر للوالدين كليهما فإذا كان الحق مع الوالد لكن ذلك لا يمنح الابن حق الجفاء في خطاب أمه، وعليه أن يرفُق بقلبها المتعلق به، حتى يكسب رضا الاثنين معًا.

من بر الأمهات:

عن أبي يزيد البسطامي قال: طلبت أمي ماء فجئتها به فوجدتها نائمة، فقمت أنتظر يقظتها، فلما استيقظت قالت: أين الماء؟ فأعطيتها الكوز وكان قد سال الماء على إصبعي فجمَد عليها الماء من شدة البرد، فلما أخذت الكوز انسلخ جلد إصبعي فسال الدم فقالت: ما

(١) أخرجه معمر بن راشد في جامعه (مصنف عبد الرزاق) ١٣٣/١١، والبيهقي في شعب الإيمان ٣١١/١٠ (٧٥٤٨) مرسلاً. والرمضاء: شدة الحر.

(٢) نزهة المجالس ومنتخب النفائس للصفوري ٢٢١/١.

هذا؟ فأخبرتها فقالت: اللهم إني راضية عنه فارض عنه[١].

حق الأم:

عن أبي هريرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، من أحق بحسن صحابتي؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال: «أمك». قال: ثم من؟ قال «أمك». قال: ثم من؟ قال: «ثم أبوك[٢]».

وكان الصالحون يقولون: يكفي من الدعاء مع البِر ما يكفي الملح من الطعام[٣]. فالبر هو الأصل فهو دعاء السرائر، وروح الإيمان، فإذا توفر فقليل من الدعاء يكفي.

إن الولد ناظر بطبيعته إلى ذريته، إلى حياته المقبلة وفي غَمْرة هذا الاندفاع قد ينسى أصله: أمه وأباه.

من أجل ذلك يجيء التركيز على قيمة البر حتى يظل الود قائمًا تتواصل به الأجيال.

ومن هنا قال عليٌّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ محذرًا من التفريط فيها: «لو علم الله تعالى أقلَّ من «أُفٍّ» لَحَرَّمه، فليَعُقَّ العاقُّ ما شاء، فلن يدخل الجنة، وليبَرَّ البارُّ ما شاء فلن يدخل النار»[٤].

(١) نزهة المجالس ومنتخب النفائس ١/ ٢١٨.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٢/٨ (٥٩٧١)، ومسلم ٤/ ١٩٧٤ (١،٢ - ٢٥٤٨).
(٣) يروى هذا الأثر عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من قوله، أخرجه بهذا اللفظ أبو نعيم في حلية الأولياء ١٦٤/١، وأخرجه الخطيب البغدادي في تالي تلخيص المتشابه ٢٢٤/١ بنحو هذا.
(٤) أخرجه الحكيم الترمذي في المنهيات ١٦٦، وأبو الليث السمرقندي في تنبيه الغافلين ١٢٤، كلاهما عن علي مرفوعًا. وانظر

إن الوالدين هما جنتك ونارك، فاختر لنفسك ما يحلو، وإذا كانت النفوس مجبولة على حب من أحسن إليها، فإن نصيب الوالدين من الحب أوفى يحملنا على ذلك أمران: الطبع والشرع.

وهل جزاء الإحسان إلا الإحسان؟

الأبناء عند حسن الظن بهم:

وهذا رجل يفِد إليه ﷺ يحمل همًّا من هموم أمته متعطشًا إلى معرفة دوره إزاء الناس من حوله، فيخبره ﷺ بحق والديه عليه أولًا، راصدًا للأم نصيبها الأوفى من الحب والاحترام، لماذا؟

قال ابن بطال: «مقتضاه أن يكون للأم ثلاثة أمثال ما للأب من البر». قال: «وكان ذلك: بصعوبة الحمل ثم الوضع ثم الرضاع»[(١)].

فهذه تنفرد بها الأم وتشقى بها ثم تشارك الأب في التربية، وقد وقعت الإشارة إلى ذلك في قوله تعالى: ﴿ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَـٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ ﴾ [لقمان: ١٤].

فسوَّى بينهما في الوصاية، وخص الأم بالأمور الثلاثة.

التحذير من العقوق:

من العقوق أن يكون الولد سببًا في سبِّ أبيه وأمه؛ عن عبد الله بن

تذكرة الموضوعات للفَتَّني ٢٠٢.

(١) شرح صحيح البخاري لابن بطال ١٨٩/٩.

عمرو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قال: قال رسول الله ﷺ: «إن من أكبر الكبائر أن يلعنَ الرجلُ والديه» قيل: يا رسول الله، وكيف يلعن الرجل والديه؟ قال: «يسب الرجل أبا الرجل، فيسب أباه ويسب أمه»[١].

والحديث الشريف يقرر ما يلي:

١- حق الوالدين في التوقير.

٢- مسئولية مباشَرة الذنب والتسبب فيه.

٣- وإذا كان غير المباشر مذنبًا فكيف بالمباشر؟!

٤- وإذا كان الإيذاء بالقول هكذا جرمًا عظيمًا فكيف إذا كان الإيذاء بالفعل؟

٥- تطهير المجتمع من البذاء والجفاء.

٦- التحذير من كل ما يتهاون الناس فيه، ويحسبونه هينًا، وهو عند الله عظيم.

وكانت الأمهات جديرات بهذا التكريم.

والتاريخ خير شاهد:

قال ابن السماك: كان رجل يجلس إلي فبلغني أنه نزل به الموت وإذا أم عجوز كبيرة، فجعلت تنظر إليه حتى غُمِّض وعُصِّب وسُجِّى فقالت: رحمك الله يا بني، لقد كنت بنا بارًّا وعلينا شغوفًا، رزقنا الله عليك الصبر، فقد كنت تطيل القيام، وتكثر الصيام، فلا حرمك الله

(١) فتح الباري ١٠ / ٥٩٧٣ .

ما أمَّلتَ من رحمته وأحسن عنك العزاء. ثم نظرت إليَّ وقالت: لو بقي أحد، لبقي رسول الله ﷺ لأمته[١].

وروي أن رجلًا قال: يا رسول الله: إن أمي هرِمت عندي: فإني أطعمها بيدي، وأسقيها بيدي، وأضعها وأحملها على عاتقي، هل جازيتها حقها؟ قال: «لا، ولا واحدًا من مائة»، قال: ولمَ يا رسول الله؟ قال: «لأنها خدمتك في وقت ضعفك مريدة حياتك، وأنت تخدمها مريدًا موتها، ولكنك قد أحسنت»[٢].

الأم تدافع عن حقها المهضوم:

تَخاصم أبو الأسود الدؤلي (ت ٦٩ هـ) إلى امرأته أمام القاضي، على غلامهما: أيهما أحق بحضانته؟ فقالت المرأة: أنا أحق به؛ لأنني حملته تسعة أشهر، ثم وضعته، ثم أرضعته، إلى أن تَرعرَع بين أحضاني، كما تراه مراهقًا. فقال أبو الاسود: أيها القاضي: حملتُه قبل أن تحمله، ووضعته قبل أن تضعه فإن كان لها بعض الحق فيه فلي الحق كله أو جُلُّه. فقال القاضي: أجيبي أيتها المرأة عن دفاع زوجك. فقالت: لئن حمله خِفًّا، فقد حملته ثقلًا، ولئن وضعه شهوة، فقد وضعته كرهًا، فنظر القاضي إلى أبي الأسود وقال له: «ادفع إلى المرأة غلامها ودَعْني من سَجعك»[٣].

---

(١) حقوق الآباء، ٧١.
(٢) شرح شرعة الإسلام ٤٧٤. وأورده أبو الليث السمرقندي في تنبيه الغافلين ١/١٢٥، وفيه: «خرِفت» بدلاً من «هرمت».
(٣) حقوق الآباء على الأبناء، طه عفيفي،٢٩. وانظر الأمالي لأبي علي القالي ٢/١٤، شرح صحيح البخاري لابن بطال ٩/١٩٠.

قيمة البر في ذرية الفاروق:

عن عبد الله ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أن رجلًا من الأعراب لقيه بطريق مكة، فسلم عليه ابن عمر، وحمله على حمار كان يركبه، وأعطاه عمامة كانت على رأسه. فقال ابن دينار: فقلنا له: أصلحك الله، إنهم الأعراب وهم يرضون باليسير. فقال ابن عمر: إن أبا هذا كان ودًّا لعمر بن الخطاب وإني سمعت رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقول: «إن أبرَّ البر صلةُ الولد أهلَ ودِّ أبيه[(١)]».

ومن بعده كان سالم بن عبد الله بارًّا بوالده، فكان أحيانًا يروي عن أبيه ويقول: كان عبد الله بن عمر، لم يقل «أبي» لأن ذلك هضم لحقه فلم يكن عبد الله مجرد «ربِّ أسرة» محدود المسئولية ولكنه كان شخصية عالمية، يتحدث عنها ولده سالم بما يفيد أنه لم يعد والدًا له؛ وإنما هو ملك للناس جميعًا.

ويبقى حق الوالد محفوظًا:

شكا رجل أباه إلى النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال له: إنه أخذ مالي. فاستدعاه النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فإذا هو شيخ يتوكأ على عصاه، يخاطب نفسه بكلام غير مسموع، فنزل جبريل على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يأمره أن يسأل الرجل عما حدثته به نفسه، قبل أن ينظر في شكوى ابنه. فلما سأله، قال الرجل: والله لا يزيدنا الله بك إلا إيمانًا وتصديقًا، لقد قلت أناجي ابني:

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه ٤/١٩٧٩ (١١ - ٢٥٥٢).

غذوتُك مولـودًا وعُلتُك يافعًا
تُعَـلُّ بـما أجنـي عليـك وتَنْهَلُ
إذا ليلة ضاقَتْك بالسُّقْم لم أبِتْ
لسُـقْمك إلا سـاهرًا أتملمـل
كأني أنا المطروح دونك بالذي
طرقت به دوني فعيني تهمل
تخاف الردى نفسي عليك وإنها
لتَعلم أن الموت وقت مؤجل
فلما بلغتَ السنَّ والغايةَ التي
إليها مدى ما كنتُ فيك أُؤَمِّل
جعلت جزائي غِلْظة وفظاظة
كأنـك أنـت المنعـم المتفضـل
فليتَك إذ لم تَرْعَ حقَّ أُبوَّتي
فعلتَ كما الجار المجاور يفعل
فأوليتني حق الجوار ولم تكن
عليَّ بمالٍ دون موتك تبخل

فلما سمع النبي ﷺ قوله، اغرورقت عيناه بالدموع .. وقال الرجل مستطردًا: إن ابني كان ضعيفًا وأنا قوي، وفقيرًا وأنا غني، فكنت لا أمنعه شيئًا من مالي. واليوم: أصبحتُ ضعيفًا وهو قوي، وفقيرًا وهو غني، ويبخل عليَّ بماله. فبكى النبي ﷺ وقال: «ما من

حَجَر، ولا مَدَر، يسمع هذا، إلا بكى»، والتفت إلى الولد وقال: «أنت ومالك لأبيك»[١].

* * *

(١) أخرجه الطبراني في المعجم الصغير ١٥٢/٢، وفي المعجم الأوسط ٣٣٩/٦ (٦٥٧٠)، والبيهقي في دلائل النبوة ٣٠٥/٦.

الإســـلام ومشــكلة الفقــر

للمستشار الدكتور/ محمد شوقي الفنجري(*)

عضو مجمع البحوث الإسلامية

مشكلة الفقر وإن كانت قديمة، لازمت الإنسانية منذ فجر التاريخ، إلا أننا لم نشعر بوطأتها إلا تدريجيًّا بتزايد حاجات الإنسان تبعًا لدرجة تطوره وتقدمه؛ فالإنسان الأول، بالرغم من قلة موارده، لم يكن يشعر بوطأة الفقر لقلة حاجاته وتطلعاته الاستهلاكية.

ولقد بلغت مشكلة الفقر ذروة حدتها متأخرًا في عصرنا الحالي، وذلك بحكم سهولة اتصال الناس بعضهم ببعض، وظهور الفوارق مع ازدياد الوعي الاجتماعي؛ فالفلاح في القرية ذات الاقتصاد المغلق لم يكن يشعر بفقره إلا حين اتصاله بعالَم المدينة.

وعليه فإن مشكلة الفقر نسبية، تختلف باختلاف الزمان والمكان، فلا شك أن فقير العصر الحاضر يعد غنيًّا بالنسبة إلى إنسان العصور القديمة، كما أن متوسط الحال اليوم في مصر أو الهند يعد فقيرًا بالنسبة لمتوسط الحال الأمريكي أو الأوروبي.

(*) مجلة الأزهر، عدد شهر ذو القعدة ١٤٢٢هـ/ فبراير ٢٠٠٢م، الجزء (١١).

أوّلًا: حقيقة مشكلة الفقر:

١ـ في الفكر الاقتصادي التقليدي تتمثل مشكلة الفقر في عدم توافر المستوى الأدنى للمعيشة، وهو ما يعبر عنه أصحاب هذا الفكر بمصطلح «حد الكفاف **Minimum Vital**»، مما يتعلق بمتطلبات البقاء، بمعنى أن الفرد يعد فقيرًا عندما لا تتوافر له متطلباته بالقدر الذي يحفظ له حياته وقدراته على العمل والإنتاج.

وفي الفكر الاقتصادي الإسلامي، تتمثل المشكلة في عدم توافر المستوى اللائق للمعيشة بحسب ظروف الزمان والمكان، وبحسب عمل الفرد ومسؤوليته، وهو ما عبر عنه فقهاء الشريعة القدامى بمصطلح «حد الكفاية **M.D'Aisance**»، مما يتعلق بمتطلبات الحياة الكريمة، وأحيانًا بمصطلح «حد الغنى **M.DE Richesse**»، بمعنى أن يعد الفرد فقيرًا متى لم تتوافر له متطلباته بالقدر الذي يجعله في بَحْبوحة من العيش وفي غنًى عن غيره.

ونخلص من ذلك إلى حقيقة مهمة، هي أن التصور الإسلامي للمشكلة الاقتصادية – أي مشكلة الفقر – لم يرتبط منذ البداية بهدف توفير الضرورات الأساسية للمعيشة، وإنما بهدف رفع مستوى المعيشة وتحسينه، وهو ما انتهى إليه أخيرًا الفكر الاقتصادي الحديث بعد أربعة عشر قرنًا، معبرًا عنه بمصطلح «الرفاهية الاقتصادية» أو

«الرخاء المادي».

٣- من ذلك يتبين أن الفقير في الإسلام ـ فردًا كان أو دولة ـ هو من يعيش في مستوى تفصله هُوة سحيقة عن المستوى المعيشي السائد في المجتمع المحلي أو العالمي المتقدم.

ويترتب على ذلك أن المشكلة الاقتصادية في نظر الإسلام، هي على المستوى المحلي تكمن أساسًا في اختلال التوازن الاقتصادي بين أفراد المجتمع، وهي على المستوى العالمي تكمن في الهوة المتزايدة بين الدول النامية والدول المتقدمة، وهو الأمر الذي سبق به الإسلام كل تفكير متقدم، حيث لا يستهدف اليوم أي تغيير أو إصلاح أو أي نظام اقتصادي جديد ـ أساسًا ـ سوى تحقيق التوازن الاقتصادي بين أفراد المجتمع على المستوى المحلي، وتحقيق التوازن الاقتصادي بين دول العالم على المستوى العالمي، الأمر الذي نبه إليه الإسلام منذ أربعة عشر قرنًا، قال تعالى: ﴿ كَيۡ لَا يَكُونَ دُولَةَۢ بَيۡنَ ٱلۡأَغۡنِيَآءِ مِنكُمۡۚ ﴾ [الحشر: ٧].

بمعنى ألا يكون المال متداولًا بين فئة قليلة تستأثر به دون غيرها، سواء على مستوى أفراد المجتمع أو دول العالم، بل يجب أن يعمَّ الخيرُ الجميعَ.

وخلاصة القول: إن الفقير في الإسلام، فردًا كان أم دولة، هو

من لا يتوافر له المستوى اللائق للمعيشة بحسب الزمان والمكان، وهو باصطلاح الفكر الاقتصادي الإسلامي: من لا يتوافر له «حد الكفاية» أو «حد الغنى»، لا مجرد «حد الكفاف».

٤- ومصطلح «حد الكفاية» أو «حد الغنى»، وإن لم يرد صراحة في أحد نصوص القرآن أو السنة، إلا أنه يستفاد من روح هذه النصوص.

وقد ورد صراحة في تعبيرات أئمة الإسلام، خاصة في مختلف كتب الفقه القديمة، بمناسبة بحث الزكاة التي هي بالتعبير الحديث مؤسسة الضمان الاجتماعي في الإسلام، والتي انفرد بإنشائها منذ أربعة عشر قرنًا لمواجهة حالات الفقر والحاجة؛ فيقول الخليفة عمر ابن الخطاب رضي الله عنه: «إذا أعطيتم فأغنوا»[1]، ويقول الخليفة الرابع علي بن أبي طالب رضي الله عنه: «إن الله فرض على الأغنياء في أموالهم بقدر ما يكفي فقراءهم[2]».

ويقول الإمام السَّرْخَسي: «وعلى الإمام أن يتقي الله في صرف

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في المصنف ٦/ ٥١٨ (١٠٥٢٦) ط. عوامة، وعبد الرزاق في المصنف ٤/ ١٠٥، والبيهقي في السنن الصغير ٣/ ٢٥٦ (١٣٠٧)، وفي السنن الكبرى ٧/ ٢٣.

(٢) أخرجه سعيد بن منصور في سننه (قسم التفسير) ٥/ ١٠٩ (٩٣١)، والبيهقي في السنن الصغير ٣/ ٢٥٦ (١٣٠٨)، وفي السنن الكبرى ٧/ ٢٣، وفي معرفة السنن والآثار ٩/ ٣٣٠ (١٣٣٣٩).

الأموال، فلا يدع فقيرًا إلا أعطاه من الصدقات ـ أي فرع الزكاة ببيت المال ـ حتى يغنيه وعياله، وإن احتاج بعض المسلمين وليس في بيت المال من الصدقات شيء، أعطى الإمام ما يكفيهم من بيت المال ـ أي الموارد الأخرى ببيت المال كالغنائم والخراج»(١)، ويقول الإمام الشاطبي: «الكفاية تختلف باختلاف الساعات والأحوال . وإن صيانة النفس في كفايتها»(٢).

ولقد عدَّ الإسلام ضمان حد الكفاية حقًّا إلهيًّا مقدسًا لكل فرد كإنسان، أيًّا كانت ديانته وأيًّا كانت جنسيته، ما دام ذلك الفرد موجودًا في مجتمع إسلامي، وكلنا يذكر قصة الخليفة عمر بن الخطاب مع المتسول العجوز اليهودي، حيث قرر له راتبًا شهريًّا من صدقات بيت المال، مفسرًا آية الزكاة: ﴿إِنَّمَا ٱلصَّدَقَٰتُ لِلْفُقَرَآءِ وَٱلْمَسَٰكِينِ﴾ [التوبة: ٦٠]، على أن المساكين هم فقراء أهل الكتاب، وعليه فإن ضمان حد الكفاية، هو في الإسلام حق الله الذي يعلو فوق كل الحقوق، وفي إنكاره أو إغفاله إنكار وتكذيب للدين والإسلام ذاته، بقوله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يُكَذِّبُ بِٱلدِّينِ ۝١ فَذَٰلِكَ ٱلَّذِى يَدُعُّ ٱلْيَتِيمَ ۝٢ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾ [الماعون: ١-٣].

بل هو قرين الكفر بالله تعالى، وموجِب لسخطه وعذابه، بقوله

(١) المبسوط للسرخسي ٣/ ٣٢.
(٢) الموافقات (ط. مشهور) ١/ ٢٤٨.

تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ۝٣٠ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ۝٣١ ثُمَّ فِي سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ۝٣٢ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ۝٣٣ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ﴾[الحاقة: ٣٠-٣٤].

وقد ورد عن الرسول ﷺ قوله: «اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر» قال رجل: أيعدلان، قال: «نعم»[١]، وجاء في الأثر: «كاد الفقر أن يكون كفرًا»[٢].

ثانيًا: سـبب مشـكلة الفقر:

١- في الاقتصاد الرأسمالي: سبب المشكلة هم الفقراء أنفسهم، سواء لكسلهم، أو لسوء حظهم بشحِّ الطبيعة أو قلة الموارد، فقضية الفقر هي أساسًا قضية قلة إنتاج أو موارد.

وقد رُتِّب على ذلك أن على الدولة أن تبيح الحرية المطلقة للجميع؛ لينتجوا ويكسبوا ويغتنوا دون قيد أو شرط، وأن على من خانه الحظ أن يرضى بواقعه فهو نصيبه وقَسْمُ الله له.

وفي الاقتصاد الاشتراكي: سبب المشكلة هم الأغنياء أنفسهم

---

(١) أخرجه أبو داود في سننه ٤/ ٣٢٤ (٥٠٩٠)، من حديث أبي بكرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، والنسائي في سننه ٨/ ٢٦٧ (٥٤٨٥)، وفي الكبرى ٧/ ٢٢١ (٧٨٦٨)، من حديث أبي سعيد الخدري رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

(٢) أخرجه الطبراني في الدعاء ١/ ٣١٩ (١٠٤٨)، من حديث عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مرفوعًا. والبيهقي في شعب الإيمان ٩/ ١٢ (٦١٨٨)، من حديث أنس بن مالك رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، مرفوعًا. وانظر العلل المتناهية لابن الجوزي ٢/ ٣٢٠.

باستئثارهم دون الأغلبية الكادحة بخبرات المجتمع، وبالتالي نشوء التناقض بين قوى الإنتاج وعلاقات التوزيع، فقضية الفقر هي أساسًا قضية سوء توزيع.

وقد رتب على ذلك نظرياته في الصراع بين الطبقات، والتركيز على تغيير أشكال الإنتاج ووسائله بإلغاء الملكية الخاصة، والقضاء على الأغنياء البورجوازيين بحسب تعبيراته.

وفي الاقتصاد الإسلامي: مَرَدُّ المشكلة ليس الفقراء أو قلة الموارد، كما ذهب الفكر الاقتصادي الرأسمالي، كما أنه ليس سببها الأغنياء أو التناقض بين قوى الإنتاج وعلاقات التوزيع، كما ذهب الفكر الاقتصادي الاشتراكي، وإنما مرد المشكلة هو:

أوَّلًا: قصور الإنتاج بعدم استغلال الموارد الطبيعية لا قلة هذه الموارد، وهو ما عبرت عنه الآية الكريمة: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحۡصُوهَآۗ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَظَلُومٞ كَفَّارٞ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

وقوله تعالى: ﴿أَلَمۡ تَرَوۡاْ أَنَّ ٱللَّهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَأَسۡبَغَ عَلَيۡكُمۡ نِعَمَهُۥ ظَٰهِرَةٗ وَبَاطِنَةٗۗ﴾[لقمان: ٢٠].

ثانيًا: سوء التوزيع لا الملكية الخاصة ذاتها، وهو ما عبرت عنه الآية الكريمة:

﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمۡ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقَكُمُ ٱللَّهُ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ

ءَامَنُوٓاْ أَنُطۡعِمُ مَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ أَطۡعَمَهُۥٓ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴾ [يس: ٤٧].

وقوله تعالى: ﴿ وَلَوۡ أَنَّ أَهۡلَ ٱلۡقُرَىٰٓ ءَامَنُواْ وَٱتَّقَوۡاْ لَفَتَحۡنَا عَلَيۡهِم بَرَكَٰتٖ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلۡأَرۡضِ وَلَٰكِن كَذَّبُواْ فَأَخَذۡنَٰهُم بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ﴾[الأعراف: ٩٦].

فمشكلة الفقر في الاقتصاد الإسلامي مَرَدُّها الإنسان ذاته وفساد نظامه الاقتصادي، سواء من حيثُ ضعفُ الإنتاج أو سوء التوزيع.

فهي ذات صفة مزدوجة، أو هي كالعملة الواحدة ذات وجهين؛ أولهما يتعلق بوفرة الإنتاج، وثانيهما يتعلق بعدالة التوزيع، بحيث لا يغني أحدهما عن الآخر؛ ذلك أن وفرة الإنتاج مع سوء التوزيع هي احتكار واستغلال لا يُسلِّم به الإسلام، كما أن عدالة التوزيع دون إنتاج كاف هي توزيع للفقر والبؤس مما يرفضه الإسلام.

على أن ذلك لا يمنع الباحث في الاقتصاد الإسلامي من التركيز على أحد الوجهين بحسب ظروف بلده ومجتمعه، فيرى أن مشكلة الفقر في إحدى الدول أو المجتمعات الإسلامية هي مشكلة إنتاج وتنمية أكثر منها مشكلة توزيع وعدالة، بينما يراها في دولة أو مجتمع إسلامي آخر هي مشكلة توزيع وعدالة أكثر منها مشكلة إنتاج وتنمية، ولا يؤدي به ذلك إلى أن يكون متبعًا ــ الفكر الاقتصادي

الاشتراكي، ما دام لا يساير في الأساس الفكرين الوضعيين في تشخيص مشكلة الفقر، وبالتالي موقفه في مواجهتها وحلِّه لها.

ثالثًا: ثمة أمر مهم يعده الإسلام في تشخيصه لمشكلة الفقر، فهو لا يقف بالنسبة للفقراء موقف الأثرة واللامبالاة، شأنه شأن الفكر الاقتصادي الرأسمالي، كما لا يقف بالنسبة للأغنياء موقف الكراهية وتغذية الصراع ضدهم، شأنه شأن الفكر الاقتصادي الاشتراكي، وإنما هو يعمل على التقريب بين الفئتين عن طريق إحلال التعاون والتكامل بينهما لا التناقض والصراع.

ثم هو في النهاية، وعلى خلاف المذاهب والنظم الاقتصادية الوضعية، لا يستهدف في تعرضه لمشكلة الفقر الجانبَ المادي أو الاقتصادي فحسب، وإنما هو يستهدف أساسًا الجانب الروحي أو الخُلُقي؛ فهو حين طالب الناس بالعبادة وذكر الله، علل ذلك في القرآن بقوله تعالى: ﴿فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَٰذَا الْبَيْتِ ﴿٣﴾ الَّذِي أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَآمَنَهُم مِّنْ خَوْفٍ﴾ [قريش: ٣-٤].

وكما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية في كتابه «السياسة الشرعية»: «إن الله تعالى خلق الأموال إعانة على عبادته؛ لأنه خلق الخلق لعبادته»[(١)]، وكما يقول الإمام الشيباني في كتابه «الاكتساب في الرزق المستطاب»: «إن الله فرض على العباد الاكتساب بطلب المعاش،

(١) السياسة الشرعية لابن تيمية ص ٣٤.

ليستعينوا به على طاعة الله»(١).

ومن هنا حكم الإسلام بأن الكفاية أو التقدم المادي وحده لا يفيد، كما أن العبادة والتقدم الروحي وحده لا يكفي، وكما نرى ونلمس فلا قيمة لحضارة متقدمة أو تقنية متفوقة من دون مُثُل وارتباط بالله تعالى وخشيته، وإلا فإن هذه الحضارة وتلك التكنولوجيا ستصبح دون صمام أمان، وبالتالي لا بد أن تطغى وتنتهي لتصبح عنصر فساد وتدمير، وهذا هو شأن الحضارة الغربية المتقدمة، والتي نلخص معاناتها ومختلف مشكلاتها في قوله تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَأَنسَىٰهُمۡ أَنفُسَهُمۡۚ﴾ [الحشر: ١٩]، أو قوله تعالى: ﴿نَسُواْ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمۡۗ﴾ [التوبة: ٦٧].

كذلك لا غنى لمُثُل طيبة وتطلعات تعبُّدية عن المادة وتوفير حد الكفاية وتعمير الكون، وإلا فإن هذه المُثُل وتلك الروحانية ستصبح بدون عناصر بقائها واستمرارها، وبالتالي لا بد أن تضعف وتضمر، وهذا هو شأن الشعوب الإسلامية اليوم التي نسيت قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ﴾ [الأنفال: ٦٠]. وصدق الله العظيم. ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ [الإسراء: ٧٢].

(١) الاكتساب في الرزق المستطاب للشيباني ص ١٤.

ثالثًا: الحل الإسلامي لمشكلة الفقر:

١- يبين مما تقدم أن الإسلام منذ أربعة عشر قرنًا قد كشف لنا حقيقة مشكلة الفقر، وأنها تتمثل في عدم توافر حد الكفاية لكل فرد حسب زمانه ومكانه، وليس مجرد حد الكفاف، فالقضية ليست درجات من الغنى أو الفقر، وإنما هي قضية إنسان له احتياجاته الأصلية أو متطلباته التي يتعين أولًا وقبل كل شيء إشباعها في إطار يحافظ على إنسانيته وينميها؛ ليكون بحق خليفة الله في أرضه بقوله تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[البقرة: ٣٠].

وليكون صادقًا في عبادته؛ إذ كما عبر ـ بحق ـ المفكر الجزائري مالك بن نبي ـ رحمه الله تعالى ـ: «كيف أصلي وأنا جائع؟»، كما كشف لنا الإسلام عن سبب المشكلة ومردِّها، وأن القضية ليست قضية ندرة موارد الإنتاج أو أشكاله السائدة، وإنما هي بنص القرآن: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعْمَتَ ٱللَّهِ لَا تُحْصُوهَآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَظَلُومٌ كَفَّارٌ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

أي مردُّها سلوك الإنسان نفسه؛ سواء بظلمه إزاء أخيه الإنسان، أو بكفرانه النعمة إزاء الموارد الطبيعية.

لذلك كان الحلُّ الإسلامي هو ضمان حد الكفاية لكل فرد يوفره لنفسه ولمن يعولهم بعمله وجهده، فإن لم يستطع ذلك لسبب خارج عن إرادته؛ كمرض أو عجز أو شيخوخة أو تعطل، تكفلت له بذلك الدولة من مال مؤسسة الزكاة التي انفرد الإسلام بإنشائها منذ أربعة عشر قرنًا؛ ليحرر الإنسان من عبودية الفقر والحاجة، وليخلص في عبادة الله وحده، ويكون ـ بحق ـ خليفته في الأرض، بل لقد رفع الإسلام من أمر الزكاة إلى مرتبة العبادة، فجعل أداءها في مرتبة أداء الصلاة، وأنه في حالة إذا لم تكف موارد الزكاة -بحسب النسب المقررة لها- لسد حاجة الفقراء، فإنها تحصل على ما يلزمها من بيت المال أخذًا من فضول الأغنياء.

٢- لقد عالج الإسلام كفران النعمة بما وضعه للإنتاج من أحكام، كما كفل محو الظلم بما وضعه للتوزيع من تعاليم، وكان له في ذلك حلوله الخاصة، سواء بالنسبة للإنتاج أو بالنسبة للتوزيع، مما يميزه عن سائر المذاهب والنظم الوضعية، ونبينه فيما يلي:

(أ) بالنسبة للإنتاج: يدعو الإسلام إلى التعمير والتنمية الاقتصادية؛ لقوله تعالى: ﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود:٦١]. أي كلفكم بعمارتها، ويعد العمل والإنتاج والتنمية من ضروب العبادة، بل هو بنص الأحاديث النبوية من أفضل صورها،

ولقد سوى الله تعالى بين المجاهدين في سبيل الله وبين الساعين على الرزق بقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

وبلغ حرص الإسلام على التنمية الاقتصادية وتعمير الدنيا، أن قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة ـ أي شتلة ـ فاستطاع ألا تقوم حتى يغرسها، فليغرسها، فله بذلك أجر»(١)، وهو في الوقت ذاته ينذر بعذاب أليم الذين يكنزون المال أو يحبسونه عن الإنتاج والتداول، ويصف الكسالى والمستضعفين في الأرض بأنهم ظالموا أنفسهم، وأن مأواهم جهنم وبئس المصير.

كذلك يستلزم الإسلام تنويع الإنتاج بحيث يشبع احتياجات المجتمع كافة، وإن كانت بعض الأحاديث النبوية تُعَدُّ الصناعة والتجارة من أطيب الكسب وأهم أوجه النشاط الاقتصادي.

وهو إذ يشجع الكسب الحلال ويمجد الاغتناء بالعمل وبذل الجهد، فإنه ينهى عن الإنتاج الضارِّ كالخمور، أو الكسب على حساب الآخرين كالربا، أو استغلال ظروف الناس كالاحتكار.

(ب)بالنسبة للتوزيع: يقرر الإسلام ضمان حد الكفاية لكل فرد بوصفه حق الله الذي يعلو فوق كل الحقوق، وبحيث لا يسمح بالغنى مع وجود الفقر والحرمان، وإنما يبدأ الغنى والتفاوت فيه بعد

(١) أخرجه أحمد في مسنده ٢٠/ ٢٩٦ (١٢٩٨١)، والبخاري في الأدب المفرد ١/ ٢٢١، كلاهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

إزالة الفقر والقضاء على الحرمان، ومع ذلك فإن هذا التفاوت ليس مطلقًا، بل هو تفاوت منضبط بالقدر الذي لا يخل بتوازن المجتمع، وذلك عن طريق منع التبذير والحجْر على السفيه، بقوله تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا﴾ [النساء: ٥]. وعن طريق تحريم الترف وعده إجرامًا، بقوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مَآ أُتْرِفُواْ فِيهِ وَكَانُواْ مُجْرِمِينَ﴾ [هود: ١١٦].

وكذا عن طريق اتخاذ الإجراءات اللازمة لإعادة التوازن الاقتصادي بين أفراد المجتمع كلما افتقد هذا التوازن أو اختل؛ إعمالا لقوله تعالى: ﴿كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةًۢ بَيْنَ ٱلْأَغْنِيَآءِ مِنكُمْ﴾ [الحشر: ٧].

ولقد لخص الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه سياسة الإسلام في توزيع الثروة، وذلك في عبارتين دقيقتين مشهورتين عنه:

أولاهما: قوله: «ما من أحد إلا وله في هذا المال حق، الرجل وحاجته ـ أي كفايته ـ ثم الرجل وبلاؤه ـ أي عمله»[١].

وأخراهما: قوله: «إني حريص على ألَّا أدع حاجة إلا سَدَدْتُها ما اتسع بعضنا لبعض، فإذا عجزنا تأسينا في عيشنا حتى نستوي في الكفاف»[٢].

(١) أخرجه أحمد في مسنده ١/ ٣٨٩ (٢٩٢)، والبيهقي في السنن الكبرى ٦/ ٣٤٧، ٣٥١، وانظر الخراج لأبي يوسف ٥٧، الأموال لابن زنجويه ص ٥٤٠، ومسند الفاروق ٢/ ٤٧٤.

(٢) تاريخ الطبري ٣/ ٥٨٤، محض الصواب في فضائل أمير المؤمنين عمر بن الخطاب لابن المِبْرَد ٢/ ٤٣٢.

ويذهب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في عام المجاعة سنة ١٨ هـ إلى أكثر من ذلك فيقول: «لو لم أجد للناس ما يسعهم إلا أن أدخل على كل أهل بيت عدتهم ـ أي مثل عددهم، فيقاسموهم أنصاف بطونهم؛ حتى يأتي الله بحيا ـ أي مطر ـ فعلت؛ فإنهم لن يهلكوا على أنصاف بطونهم»(١).

وفي آخر أيام حياته، حين بدأت تظهر طبقة من كبار الأثرياء في شبه الجزيرة العربية وخارجها، ولم يمتد به الأجل ليواجهها بما عرف عنه من حسم، حيث طعن تلك الطعنة التي قضى بها، نقل عنه كلمته المشهورة: «لو استقبلت من أمري ما استدبرت، لأخذت فضول الأغنياء فرددتها على الفقراء»(٢)، وقوله: «والله لئن بقيت إلى الحول لأُلحقنَّ أسفل الناس أعلاهم»(٣)، ولكن القدر لم يمهله، وخَلَفَه سيدنا عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ويلحظ هنا دقة العبارة العمرية، فهو يقول: «لأخذت فضول الأغنياء»، أي ما زاد عن حاجتهم، ولم يقل «لأخذت أموال الأغنياء»، ذلك؛ لأن الإسلام لا يقرُّ مُصادرَة الملكية الخاصة.

كما يقول: «لألحقنَّ أسفل الناس بأعلاهم»، ولم يقل: «لألحقنَّ أعلى الناس بأسفلهم»؛ ذلك لأن الإسلام يحرص على إغناء الفقير دون إفقار الغني.

(١) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٣/ ٣١٦، وعمر بن شبة في تاريخ المدينة ٢/ ٤٧٣.
(٢) أخرجه ابن زنجويه في الأموال ٢/ ٧٨٩ (١٣٦٤).
(٣) أخرجه ابن سعد في الطبقات ٣/ ٣٠٢، وانظر غرائب مالك للدارقطني ص ٤٥، فتح الباري لابن حجر ٧/ ٤٩٠.

ومن هنا يجمع فقهاء الإسلام على اعتبار الحاكم آثمًا إذا لم يوفر حد الكفاية لكل فرد أخذًا مما زاد عن حاجة الأغنياء؛ لقوله تعالى: ﴿ وَفِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾[الذاريات:١٩]، وقوله تعالى: ﴿ وَٱلَّذِينَ فِىٓ أَمْوَٰلِهِمْ حَقٌّ مَّعْلُومٌ ﴿٢٤﴾ لِّلسَّآئِلِ وَٱلْمَحْرُومِ ﴾ [المعارج: ٢٤-٢٥]، فاستخدم الله تعالى مصطلح «حق» ولم يقل: «إحسان أو تبرع»، وقولـه تعالى: ﴿لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ ﴾ [النساء: ٣٢].

فلم يقل تعالى «ما اكتسبوا»، وإنما فقط: ﴿نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ ﴾ (إذا كانوا أفرادًا، ونصيب مما أفاء الله عليهم دولًا، ومن ثم جاء الحديث النبوي صريحًا: «تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم»[١]، ولا يفهم من ذلك نزع الملكية أو الاستيلاء على أموال الناس، وإنما فقط «أخذ الفضل من الغني بقدر كفاية الفقير»؛ إذ لا يتصور أن يبيت فرد أو دولة على شِبع وجاره إلى جنبه جائع وهو يعلم، وصدق الخليفة عمر بن الخطاب بقوله: «إن الله استخلفنا على عباده؛ لنسدَّ جَوْعتهم ونوفر لهم أمنهم، فإن لم نفعل فلا طاعة لنا عليهم».

٣- وخلاصة القول: إنه بحسب الإسلام، كل فرد اكتسب مالًا مشروعًا، أو كل دولة حباها الله بموارد وافرة، فإنه يكون لهذا الفرد وحده أو لتلك الدولة وحدها السيادة على هذا المال أو تلك الموارد، لا ينازعها فيها أحد بدعوى عدالة التوزيع.

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٢/ ١٣٠ (١٣٩٥)، ومسلم في صحيحه ١/ ٥٠ (٢٩-١٩)، كلاهما من حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه.

إلا أنه مقابل ذلك، ولأن المال أصلًا هو مال الله، والبشر ـ بنصِّ القرآن ـ مُسْتخلَفون فيه ومسئولون عنه أمام الله، فإن يدهم على هذا المال أو الثروة هي يد أمانة، وملكيتهم لها هي مجرد وظيفة شرعية أو اجتماعية، ومن ثم فقد أوجب الله تعالى على كل فرد غني – وبالمثل كل دولة غنية – التزامات معينة، تتمثل في تقديم ما يزيد على حاجة الفرد الغني أو الدولة الغنية إلى الفرد أو الدولة المحتاجة، وذلك دون حدود سوى ما يسد أو يكفي هذا الفرد أو تلك الدولة المحتاجة، على أن يبدأ بالأقرب فالأقرب، وكل ذلك إعمالًا لقوله تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ ٱلْعَفْوَ﴾ [البقرة: ٢١٩]، والعفو هنا هو الفضل، أي ما زاد على الحاجة، وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٧].

وقول الرسول ﷺ: «من كان عنده فضل زاد فلْيَعُدْ به على من لا زاد له، ومن كان عنده فضل ظَهْر فلْيَعُدْ به على من لا ظهر له»(١) ويضيف الرواة أن الرسول ﷺ ذكر من أصناف المال ما ذكر، حتى رأينا أنه لا حق لأحدنا في فضل.

ولقد صاغ الإمام الشافعي العَلاقة بين الأغنياء والفقراء، أفرادًا كانوا أم دولًا في عبارة دقيقة مشهورة عنه بقوله: «إن للفقراء أحقية استحقاق في مال الغني، حتى صار بمنزلة المال المشترك بين صاحبه وبين الفقير».

(١) أخرجه أبو داود في سننه ٢/ ١٢٥ (١٦٦٣)، والبيهقي في شعب الإيمان ٥/ ٧٥ (٣١١٥)، كلاهما من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه. والظهر: الدابة.

بينما ذهب الفقيه أحمد بن علي الدُّلَجي في كتابه «الفِلاكة والمفلوكون» - أي الفقر والفقراء - إلى القول: «إن من حق المحروم أن يرى النعم التي بأيدي الناس مغصوبة، والمالك المستحق يطالب باسترداد ماله من أيدي الغاصبين»(١)، ومن قبلها صرخ الصحابي أبو ذر الغفاري قائلًا: «عجبت لمن لا يجد قوت يومه، كيف لا يخرج على الناس شاهرًا سيفه»(٢).

هذا هو موقف الإسلام بالنسبة لأكبر مشكلة أو أكبر تحدٍّ يواجه دائمًا الإنسانية عبر مسارها وتاريخها الطويل، بل هذا هو حق الإنسان في الإسلام، الذي أكده منذ أربعة عشر قرنًا، من حيث ضمان «حد الكفاية» لكل فرد، أيًّا كانت جنسيته أو ديانته، وذلك كحق إلهي مقدس يعلو فوق كل الحقوق، ولو أدى الأمر في حالات الشحِّ والندرة أو المجاعة - وهي ظروف استثنائية - أن يتساوى الجميع في حد الكفاف، فأين ذلك من العالم المتقدم اليوم؟!

نسأله تعالى السداد والتوفيق

* * *

---

(١) الفلاكة والمفلكون ص ١٦.

(٢) ذكر الدكتور شوقي الفنجري هذا الأثر في كتابه الإسلام والتوازن الاقتصادي بين الأفراد والدول ص ٥٤، واعتمد في نقله كتاب «أبو ذر الغفاري» للأستاذ عبد الحميد جودة السحار، ولا يصح هذا عن أبي ذر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وقد ألمح إلى هذا المعنى ابن حزم في المحلى ٦/ ٢٢٦، ٢٢٧.

خصوصية الاختلاف بين الأديان السماوية

فضيلة الشيخ/ فوزي الزفزاف(*)

وكيل الأزهر الشريف سابقًا

شاءت إرادة الله وحكمته أن يختلف أفراد البشر في وجوه كثيرة: في اللون، في الطول والقصر، في الغنى والفقر، في الصحة والمرض، في القوة والضعف، في النشاط والخمول، في العادات والتقاليد، في الذكاء والغباء، في اللغة واللهجات، في الخير والشر، في الهداية والضلال، في الإيمان والكفر. إلخ، هذه هي الاختلافات القائمة بين أفراد البشر، يقول الله تعالى: ﴿ وَمَا كَانَ ٱلنَّاسُ إِلَّآ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَٱخْتَلَفُوا۟ ۚ وَلَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّكَ لَقُضِىَ بَيْنَهُمْ فِيمَا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴾ [يونس:١٩].

ويقول سبحانه: ﴿ وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦ خَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفُ أَلْسِنَتِكُمْ وَأَلْوَٰنِكُمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّلْعَٰلِمِينَ ﴾ [الروم:٢٢].

بل وُجِد الاختلاف في سائر مخلوقات الله جل وعلا في: الجماد والنبات، وفي الطير والدَّواب، والليل والنهار، يقول الله تعالى:

(*) مجلة الأزهر عدد شهر ربيع الآخر ١٤٢٦هـ/ مايو - يونيو ٢٠٠٥م، الجزء (٤).

﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَاۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ﴾

[فاطر: ٢٧-٢٨].

كما وُجِد الاختلاف في الماء، الذي هو أساس كلِّ كائن حيٍّ على وجه الأرض، يقول الله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾

[الفرقان :٥٣].

غير أن الاختلاف[١] بين الأديان السماوية له خصوصية خاصة مغايرة للاختلافات الأخرى الكائنة في خلق الله تعالى على وجه عام، سواء أكانت هذه الاختلافات الواقعة بين البشر في غير العقيدة الدينية، أم بين النباتات، أم بين الجمادات، أم بين الحيوانات، أم بين الطيور، أم بين الليل والنهار، أم بين الكواكب والنجوم، أم بين الماء . إلخ.

الأديان السماوية مصدرها واحد:

الأديان السماوية كلها مصدرها واحد، وأصولها واحدة، وأهدافها وغاياتها واحدة، لا يختلف فيها دين عن دين، فكلها متفقة في إثبات

(١) من بحث : «العلاقات المشتركة بين الأديان السماوية وأهميتها في بناء جسور التعاون بينها»، فوزي فاضل الزفزاف.

وجود الله خالق الكون بمن فيه وما فيه، وعلى الدَّعوة إلى توحيد الله وعبادته، وعلى الإيمان بكتبِه ورسلِه وملائكتِه واليوم الآخر، وعلى الإيمان بالحساب والجزاء في الآخرة على أعمال الدنيا.

ويؤكد ذلك حديث الرسول ﷺ، فعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة، والأنبياء إخوة لِعَلَّاتٍ [وهم أولاد الرجل من أمهات متفرقة]؛ أمهاتهم شتى ودينهم واحد»(١).

أما الاختلاف الواقع في شرائع الأديان السماوية فهو فيما يتعلق ببعض الأوامر والنواهي، وببعض وجوه الحلال والحرام، وبغير ذلك من فروع الشريعة؛ فقد يُحرِّم الله شيئًا على قوم عقوبة لهم، ويُحِلُّه لقوم آخرين تخفيفًا عنهم؛ كما قال الله تعالى: ﴿ وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴾ [الأنعام:١٤٦]، وكتحريم صيد السمك في يوم السبت على قوم وحلِّه لغيرهم؛ كما قال الله تعالى: ﴿ وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ٤/ ٢٠٣ (٣٤٤٣) واللفظ له، ومسلم في صحيحه ٤/ ١٨٣٧ (١٤٥- ٢٣٦٥) بلفظ مقارب، كلاهما من حديث أبي هريرة رضي الله عنه، وعلَّات يعني: الأولاد الذين أمهاتهم مختلفة وأبوهم واحد؛ أراد أن إيمانهم واحد وشرائعهم مختلفة، النهاية في غريب الحديث والأثر، لابن الأثير (مادة: علل) ٣/ ٢٩١.

إِذۡ تَأۡتِيهِمۡ حِيتَانُهُمۡ يَوۡمَ سَبۡتِهِمۡ شُرَّعٗا وَيَوۡمَ لَا يَسۡبِتُونَ لَا تَأۡتِيهِمۡۚ كَذَٰلِكَ نَبۡلُوهُم بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴾[الأعراف:١٦٣]، وكما قال الله تعالى حكاية عن عيسى عليه السلام: ﴿وَمُصَدِّقٗا لِّمَا بَيۡنَ يَدَيَّ مِنَ ٱلتَّوۡرَىٰةِ وَلِأُحِلَّ لَكُم بَعۡضَ ٱلَّذِي حُرِّمَ عَلَيۡكُمۡۚ وَجِئۡتُكُم بِـَٔايَةٖ مِّن رَّبِّكُمۡ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُونِ ﴾ [آل عمران: ٥٠].

الحاجة الملحَّة إلى التفاهم والتقارب والتعاون بين أتباع الديانات السماوية:

إذا كانت الديانات السماوية متفقة المصدر والأصول - وبينها من التآخي والترابط والتماسك، بحيث لا تشذُّ لبِنةٌ فيها عن سائر اللبنات - فإن الفطرة السليمة تدعو أتباع هذه الديانات إلى أن يكونوا مظهرًا لهذا التآخي والترابط والتماسك، فلا يحدث بينهم من الخلاف والشِّقاق والفرقة ما تنكره طبيعة الدِّين بمعناه العام؛ لأن الدِّين السماوي بطبيعته جاء لصالح الإنسان، وإنقاذ البشرية من الظلمات إلى النور، وإلى هداية الناس إلى طريق رب العالمين.

فإذا كان المبدأ واحدًا وهو النزول من عند الله تعالى، وإذا كانت النهاية واحدة وهي هداية الناس إلى الطريق القويم، فكيف يحدث الخلاف والتنافر؟ وكيف تقع القطيعة والتباعد؟

إنَّنا عندما نشاهد الخلاف والتنافر، والقطيعة والتباعد، والواقع بين بعض أتباع الديانات السماوية - والذي يصل إلى حد الصدام أحيانًا - فإن ذلك لا يرجع إلى طبيعة الدِّين ذاته، ولكنه يرجِع إلى أن الذين أحدثوا الخلاف وقاموا بالشقاق لا يعرفون رسالة الدين، ولا يفهمون جوهره ورُوحه، ولا يدركون أنهم بعملهم هذا قد خرجوا عن طبيعة الدين نفسه!

إن الدِّين بالنسبة لصلاح النفس البشرية، وهدايتها إلى الحق والخير، والعمل لعمارة الأرض، وتحقيق السلام والأمن والاطمئنان للنَّاس؛ كالدواء الناجع للجسم المريض، ولن يؤدي الدواء دوره التام في الشفاء والبُرْء من السِّقام إلا إذا أُخذ على وجهه الصحيح، وبالقدر الذي يحدده الطبيب، وفي الزمان الذي يعَيِّنه، فإذا أهمل المريض قدر الدواء وزمانه، ولم يأت الشفاء، فليس العيب عيبَ الدواء، ولكنه عيب الذي لا يفهم رسالة الدواء وشروط استعطائه؛ وهذه الأمور من البداهة التي يجب ألَّا يطول الحديث فيها.

مسئولية قادة الأديان:

في اعتقادي أنه لا يوجَد دين سماوي سلمت نصوصه السماوية من تحريف أتباعه، إلَّا ويدعو إلى الخير ويرفض الشر، ويدعو إلى التعارف والتآلف، وينبِذ الفُرْقة والتخاصم؛ فالأديان كلها تتفق على الفضائل الإنسانية، وتحارب الرذائل السافلة والنَّزوات الهابطة،

وباتباع الأخلاق التي دعت إليها الأديان السَّماوية كلّها نستطيع أن نقرب الشُّقَّة، ونغلق باب الخلاف، فلا نجعله مثارًا للَّجاج والشِّقاق، وهنا أتساءل: أيوجد دين سماوي يحبذ الرذيلة ؟ أيوجد دين سماوي يحارب الفضيلة ؟

لقد آن الأوان أن يتحمل القادة الدينيون - في الإسلام والمسيحية - مسئولياتهم، وأن يقوموا بأداء رسالتهم في بث التَّقارب والتفاهم والتعاون ونشر المحبة بين أتباع الديانتين على مستوى العالم؛ وأول ما يجب عليهم هو: نبذ التعصب المَقيت الذي يفرض صاحبه أنه هو وحده المحِق، وأن غيره يسير على ضلال؛ والتعصب بهذا التفسير مخالف لشرع الله، وقد أوضح القرآن الكريم منهج الإسلام في مناقشة المخالفين، فقال الله عز وجل مخاطبًا رسوله الكريم: ﴿ فَلِذَٰلِكَ فَٱدْعُ ۖ وَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ ۖ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ ۖ وَقُلْ ءَامَنتُ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِن كِتَٰبٍ ۖ وَأُمِرْتُ لِأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ ۖ لَنَآ أَعْمَٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَٰلُكُمْ ۖ لَا حُجَّةَ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ ۖ ٱللَّهُ يَجْمَعُ بَيْنَنَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴾ [الشورى:١٥]، ويقول جل شأنه: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [النحل:١٢٥].

العقيدة شيء عزيز جدًا:

وما دامت هذه النصوص المقدسة صريحة في وجوب الإخاء الإنساني، والدعوة إلى السلام في جميع أنحاء الأرض بالحكمة والموعظة الحسنة؛ فإن من الخطأ الفادح أن يتنازع رجال الدين - وهم القائمون على رسالات السماء - وأن يثيروا أوجه الخلاف بين الأديان، بدل أن يدعوا إلى التقارب والتفاهم، وأن يجنبوا ما قد يكون من خلاف في العقيدة؛ لأن العقيدة شيء عزيز جدًّا على كل متدين، ومحاولة جعلها مجالًا للخلاف هي فتح لأبواب الشِّقاق والصراع.

وما اقتتلت الطوائف الدينية في القرون الماضية؛ إلا لأنها خالفت أمر الله في الدعوة إلى سبيله بالحكمة والموعظة الحسنة، مع المجادلة بالتي هي أحسن، والله عز وجل خبير بنزوات النفوس، وميلها إلى الشر في بعض الأحايين؛ لذلك كرر القول داعيًا إلى التسامح والرفق بالمخالفين.

وقد قال عز وجل لنبيِّه الكريم: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَن فِي الْأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعًا ۚ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّىٰ يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس ٩٩].

وقال سبحانه: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ ۚ﴾ [البقرة:٢٥٦].

وقال جل شأنه: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾

[آل عمران ٦٤].

وقال سبحانه: ﴿وَلَا تُجَٰدِلُوٓا۟ أَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦].

ولعمري إن منصفًا يتَّبع الحق ولا ينصرف إلى الهوى، يقرأ قول الله: ﴿وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٦]، لا يسعه إلا المصافاة والإخاء والمسالَمة والسير على الطريق المستقيم.

فضائل مشتركة:

إن ما في الإسلام والمسيحية من فضائل مشتركة، هي محل اتِّفاق تام بينهما، لو اتبعها أتباع الديانتين على وجهها الصحيح لساد السلام، وعاش الناس في وفاق تام، وعمَّ الخير على الجميع.

- فكلتا الدِّيانتين - الإسلام والمسيحية - تأمران بالعدل واتِّباع الحق، والبعد عن الظلم والعدوان، وهذا محل اتِّفاق.

• وهما تأمران بنشر المبادئ الإنسانية، التي ترقى بالإنسان إلى عالم الكمال، ليؤدي رسالته في الحياة سعيدًا باتِّباعه المنهج الديني القويم.

• كما تدعوان إلى التوافق والالتئام، وتحذران من الشِّقاق والانفصام؛ إذ إن صلاح الكون لا يتم إلا بانسجامٍ تامٍّ بين السلوك الإنساني والخُلق النبيل.

• كما تدعوان إلى المساواة، فلا تسمحان لطبقة بالامتياز والعلو على طبقة أخرى؛ لأن الجميع لا يتفاضلون إلا بالتقوى والصلاح، ﴿إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٞ﴾[الحجرات: ١٣].

• وهما أيضًا تبشِّران بمجتمعٍ سعيدٍ لا يعرف التناحر والخصام، ولا يتم ذلك إلا بمراعاة تنفيذ النصوص المقدَّسة في القرآن الكريم والإنجيل.

• كما أنهما تعترفان بحق الإنسان في أن يكون حُرًّا، يقول ما يعتقد، ويصغي ويحترم الرأي المخالف ليناقشه بأدب واحترام لا بلِجاجٍ وعناد.

هذه هي بعض المبادئ التي تجعل الدِّين مصدر سعادة للإنسان؛ والمتدين بهذه المبادئ يكون قريبًا من الله، قريبًا من الناس.

مقوِّمات الأُخوَّة في اللّه

أ/ عبد الحفيظ فرغلي علي القرني(*)

من علماء الأزهر الشريف

أولًا: الإيثار:

تطلبُ المؤاخاة من أصحابها أن يتوفَّر فيهم - بادئ ذي بدء - عنصر «الإيثار» الذي زكَّاه الله تعالى بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلۡإِيمَٰنَ مِن قَبۡلِهِمۡ يُحِبُّونَ مَنۡ هَاجَرَ إِلَيۡهِمۡ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمۡ حَاجَةٗ مِّمَّآ أُوتُواْ وَيُؤۡثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ وَلَوۡ كَانَ بِهِمۡ خَصَاصَةٞۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفۡسِهِۦ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾ [الحشر:٩]، وقد رأينا في قصص الإيثار مُثلًا عُليا، نكتفي منها بما ذكره القرطبي في تفسيره حول الآية السابقة. قال: كان المهاجرون في دُور الأنصار، فلما غَنِم - عليه الصلاة والسلام - بأموال بني النَّضير دعا الأنصار فشكرهم فيما صنعوا مع المهاجرين في إنزالهم إيَّاهم في منازلهم وإشراكهم في أموالهم، ثم قال: «إنْ أحببتم قسمت ما أفاء الله عليَّ من بني النَّضير بينكم وبينهم، وكان المهاجرون على ما هم عليه من السُّكنى في مسكنكم وأموالكم، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دُوركم»، فقال سعد بن عُبادة وسعد بن معاذ: بل تقسِّمه بين

(*) ملحق مجلة الأزهر، عدد شهر ربيع الأول ١٤١٥هـ.

المهاجرين ويكونون في دُورنا كما كانوا. ونادت الأنصار: رضينا وسلمنا يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ: «اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار»(١).

ثانيًا: التَّوارث:

كان «التوارث» في أوَّل الأمر من مُقوِّمات الإخاء حيث كان الأخ يرثُ أخاه، حتى نزلت هذه الآية الكريمة: ﴿وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب:٦].

وقال العلماء: كانوا يتوارثون بالهجرة، ويتوارثون بالتآخي، فنَسخت هذه الآية هذا الحكم، وأصبح التوارث بالقرابة كما فصَّلته سورة النساء.

ثالثًا: التناصر والتناصح:

من مُقوِّمات الإخاء أيضا «التناصُر والتناصُح»، وهذا ما يُشار إليه بقوله ﷺ: «انصُر أخاك ظالمًا أو مظلومًا»(٢). ومعنى نُصرة الظالم كفُّه عن الظلم وإرشاده إلى ما ينبغي أن يفعله من الخير.

قال الماوردي في «أدب الدنيا والدين» : وإنما يلزم من حقِّ الإخاء بذل المجهود في النُّصح والتناهي في رِعاية ما بينهما من الحق، فليس في ذلك إفراط وإن تناهى، ولا مجاوزةَ حدٍّ وإن كثُر

(١) الجامع لأحكام القرآن ٩/ ٦٥٠٢، ط. دار الشعب.
(٢) أخرجه البخاري في صحيحه ٣/ ١٦٨ (٢٤٤٣، ٢٤٤٤)، ٩/ ٢٨ (٦٩٥٢).

وأوفى[١]، ولعلَّ من مُقوِّمات الإخاء أيضًا اعتقاد مودَّته، ثم إيناسه بالانبساط إليه في غير مُحرَّم.

ثم نصحه في السرِّ والعلانية، وتخفيف الأثقال عنه، ثم معاونته فيما ينوبه من حادثة، أو يناله من نَكْبة، فإن مودَّته في الظاهر نفاق، وتركه في الشِّدَّة لُؤم، وكذلك غفران الهفوات وستر الزلَّات.

قال الشافعي:

أحـبُّ مـن الإخـوان كلَّ مُـواتي
وكلَّ غَضيضِ الطرفِ عن عَثَراتي

يوافِقُنــي في كلِّ أمــرٍ أريــده
ويَــحفظني حيًّـا وبعــد مَمَــاتي

فمــن لي بهــذا لَيتنــي إن أصَبْتُـه
فقاسَمْــتُه مـالي من الحسـنات

تصفحـت إخـواني وكان أَقلّهم
علـى كــثرةِ الإخوان أهلَ ثِقــاتي[٢]

(١) أدب الدنيا والدين ١٧٧.
(٢) ديوان الإمام الشافعي ص٢٧، وانظر أدب الدنيا والدين ١٧٩.

آدابٌ عامةٌ للأخوة في الله:

لقد تمسَّك التابعون من العلماء العاملين بمبدأ الأخوة، واعتبروه أصلًا من أصول سبيلهم إلى الله؛ لأنهم استأنسوا في ذلك بقوله ﷺ: «المؤمنُ للمؤمنِ كالبُنْيانِ يَشُدُّ بعضُه بعضًا»[١]، واعتبروا هذا القول شُعلة تضيء أمامهم الطريق، وتمدُّهم بالعزم والقوة، ولذلك وضعوا شروطًا للأخوة وآدابًا لا يتعداها الواحد منهم، بل يلتزم ويتحمل تبِعاتها بصدر رحْب ورِضا عميق.

ومن أقاصيصهم في المحافظة على الأخوَّة ما يرويه صاحبُ كتاب «عوارف المعارف» من أنَّ أحدهم قصد أخًا له في الله يستعين به في أداء دَيْن عاجل، فأدَّى له ما يريد، ثم دخل على زوجته يبكي، فقالت له: ما يُبكيك وقد كان في وُسعِك أن تعتذر له ولا تعطيه؟ فقال: ما على المال أبكي، ولكني أبكي لأنني ضيَّعت حقَّ أخي فلم أتفقَّد حاله حتى حملتُه على أن يسألني[٢].

وهم كثيرو الصَّفح عن زلَّات الإخوان حتى قال أحدهم: الْتمسْ لأخيك من عُذر إلى ستين عُذرًا فإن لم تجد له عُذرًا فقل: لعلَّ له عُذرًا لا أعلمه[٣].

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحه ١/ ١٢٩ (٤٨١)، ٣/ ١٦٩ (٢٤٤٦)، ٨/ ١٤ (٦٠٢٦)، ومسلم في صحيحه ٤/ ١٩٩٩ (٦٥ - ٢٥٨٥).

(٢) عوارف المعارف ٢٤٢.

(٣) انظر ما أخرجه في هذا المعنى ابن أبي الدنيا في مداراة النفوس ٤٨ (٤٠) من

ولقاءُ الإخوان عندهم يغذِّي الأرواح ويقوِّي القلوب ويشرح الصدور، ومن كلام الجُنيد في ذلك، كما رواه الطُّوسي في «اللُّمع»: لقد كنت أرى أقوامًا تجذبُني منهم النَّظرة؛ فهم زادي من الجمعة إلى الجمعة.

ومن شرائط المودَّة - عند هؤلاء القوم - البرُّ والوفاء وإسقاط الكُلفة، ومُقتضى ذلك عدم التغيُّر على البُعد أو طُول أمد اللقاء، قال بعض المشايخ: «إذا صحَّ لي مودَّة أخٍ فلا أُبالي متى لقِيتُه».

ومن آداب الأُخوَّة - عندهم - كذلك التناصُح، فالمؤمن مِرآةُ أخيه، ومن تمام ذلك ألا يُرِى الصديقُ صديقَه في نفسه ما يكرهه.

ومن آدابهم حُسْنُ الاختيار ولذلك قال ذو النُّون المِصري: اصْحَبْ من إذا مرضت عادك، ومن إذا أذنبتَ تاب عليك[1].

وقال سهل بن عبد الله[2]: اجتنب ثلاثة أصناف من الناس: الجبابرة الغافلين، والقرَّاء المداهنين، والمُتصوِّفة الجاهلين.

وكان للأُخوَّة هذا الفضلُ العظيم عندهم؛ لأن مثل المتصاحبين في الله - كما يقول أحمد بن يوسف الزجَّاجي - مثلُ النورين إذا اجتمعا أبصرا باجتماعهما، ما لم يكونا يُبصرانه قبل ذلك.

كلام أبي قلابة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «التمس لأخيك العذر بجهدك، فإن لم تجد له عذرًا فقل: لعل لأخي عذرًا لا أعلمه». وفي هذا المعنى ينسب لدعبل الخزاعي - كما في مجمع الأمثال ٢/ ١٩٢ -:

تأنَّ ولا تَعْجَلْ بلومك صاحبًا ** لعل له عذرًا وأنت تلوم

(١) الرسالة القشيرية ٢/ ٤٦٠.

(٢) انظر كلامه في إحياء علوم الدين ٢/ ١٧٢ (ط. دار المعرفة، بيروت).

ومن نصائح ابن عطاء الله السكندري في كتابه (الحِكَم): لا تصحب من لا يُنهِضُكَ حاله، ولا يَدُلُّكَ على الله مَقالُه[1]، ما أحوجنا الآن إلى أدب الأخوة، ومبدأ الإخاء، لعلنا نُصلح من أنفسنا ما أفسدناه، ونعود بديننا إلى ناضِر جَناه، ونبني من مجدنا العريق ما هدمناه.

اتساع مفهوم الإخاء في الإسلام:

لا يفوتُنا ونحن نتحدث عن مفهوم الإخاء في الإسلام أن نُنَوِّه بما جاء في الموسوعة الذَّهبية للعلوم الإسلامية للدكتوره فاطمة محجوب حول موضوع الإخاء؛ إذ كتبت فصلًا رائعًا عنه جاء فيه: عن (الإخاء في الإسلام): يقول الأستاذ عبد الرحمن عزَّام: كان المجتمع العربي قد قسَّمته العصبيات القبَلية والقسوة الفردية، وكان المجتمع الإنساني قد سادته كذلك العصبيَّة والجنسيَّة والفخر بالأنساب حين جهر الرسول بالدعوة إلى الإخاء صادعًا بنداء الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقۡنَٰكُم مِّن ذَكَرٖ وَأُنثَىٰ وَجَعَلۡنَٰكُمۡ شُعُوبٗا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْۚ إِنَّ أَكۡرَمَكُمۡ عِندَ ٱللَّهِ أَتۡقَىٰكُمۡۚ﴾ [الحجرات:١٣]. وآيات الكتاب الكريم، والأحاديث في الترغيب في الإخاء والرحمة مستفيضة.

---

(١) إيقاظ الهمم شرح متن الحكم لابن عجيبة الحسني ٥٧، التصوف والحياة العصرية للمؤلف، ص ٣٣، ط. مجمع البحوث الإسلامية.

وفي حديث قدسي: إن الله – عزَّ وجل – يقول يوم القيامة: «يَا ابْنَ آدَمَ مَرِضْتُ فَلَمْ تَعُدْنِي، قَالَ: يَا رَبِّ كَيْفَ أَعُودُكَ؟ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا مَرِضَ فَلَمْ تَعُدْهُ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ عُدْتَهُ لَوَجَدْتَنِي عِنْدَهُ؟ يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَطْعَمْتُكَ فَلَمْ تُطْعِمْنِي، فيقَولَ: يَا رَبِّ وَكَيْفَ أُطْعِمُكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ فيقولَ الله: أَمَا عَلِمْتَ أَنَّ عَبْدِي فُلَانًا اسْتَطْعَمَكَ، فَلَمْ تُطْعِمْهُ؟ أَمَا إِنَّكَ لَوْ أَطْعَمْتَهُ لَوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي، يَا ابْنَ آدَمَ اسْتَسْقَيْتُكَ، فَلَمْ تَسْقِنِي، فيقولَ: كَيْفَ أَسْقِيكَ وَأَنْتَ رَبُّ الْعَالَمِينَ؟ فيقَولَ: اسْتَسْقَاكَ عَبْدِي فُلَانٌ فَلَمْ تَسْقِهِ، أَمَا إِنَّكَ لَوْ سَقَيْتَهُ لوَجَدْتَ ذَلِكَ عِنْدِي»[1].

انظر إلى هذا المعنى السامي في هذا الحديث الجليل، فإنَّ الله مع عباده في كل لحظة وحالة، وإن البرَّ بالناس بِرٌّ بالله، وما هو في حاجةٍ لبر ولكنَّه لا يرضى إلا أن يكون كأنَّما البر لذاته، ولذلك سمَّى الإحسان والتصدُّق على الفقراء قرضًا له تعالى فقال: ﴿ مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥ وَلَهُۥٓ أَجْرٌ كَرِيمٌ ﴾ [الحديد:١١]. ولا أظن أن مُنازعًا يستطيع أن ينازعنا في أن الإخاء والرحمة هما الأصل بالنسبة لمبادئ الإحسان في الدَّعوة المحمدية، كما أنهما الغاية.

فهي لم تترك سبيلًا من الترغيب والترهيب إلا سلكتْه لتنطويَ النفوس على الإخاء والرحمة، وتُنفِّرَ القلوبَ من الأَثَرة والأنانية.

---

(١) أخرجه مسلم في صحيحه٤/ ١٩٩٠ (٤٣ – ٢٥٦٩)، والبخاري في الأدب المفرد ٢٣٨(٥١٧).

ولما تمكَّنت دعوة الإخاء في النفوس منَّ الله بها على المؤمنين كأكبر نعمة، فقال الله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ كُنتُمۡ أَعۡدَآءٗ فَأَلَّفَ بَيۡنَ قُلُوبِكُمۡ فَأَصۡبَحۡتُم بِنِعۡمَتِهِۦٓ إِخۡوَٰنٗا﴾ [آل عمران:١٠٣].

ولم تكن الدعوة إلى الإخاء قاصرة على المهاجرين والأنصار، ولكنها كانت عامة: ﴿قُلۡ يَٰٓأَهۡلَ ٱلۡكِتَٰبِ تَعَالَوۡاْ إِلَىٰ كَلِمَةٖ سَوَآءِۭ بَيۡنَنَا وَبَيۡنَكُمۡ أَلَّا نَعۡبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشۡرِكَ بِهِۦ شَيۡـٔٗا وَلَا يَتَّخِذَ بَعۡضُنَا بَعۡضًا أَرۡبَابٗا مِّن دُونِ ٱللَّهِۚ﴾ [آل عمران:٦٤] .

﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ ٱلدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِۦ نُوحٗا وَٱلَّذِيٓ أَوۡحَيۡنَآ إِلَيۡكَ وَمَا وَصَّيۡنَا بِهِۦٓ إِبۡرَٰهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰٓۖ أَنۡ أَقِيمُواْ ٱلدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُواْ فِيهِۚ﴾ [الشورى:١٣]، ﴿قُولُوٓاْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيۡنَا وَمَآ أُنزِلَ إِلَىٰٓ إِبۡرَٰهِـۧمَ وَإِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَ وَيَعۡقُوبَ وَٱلۡأَسۡبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَآ أُوتِيَ ٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمۡ لَا نُفَرِّقُ بَيۡنَ أَحَدٖ مِّنۡهُمۡ وَنَحۡنُ لَهُۥ مُسۡلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٦]. فالدعوة المحمدية قد قامت - إذًا - على رسالة للناس كافَّة لعبادة الله وحده، وليكون الناس أمة واحدة، والأخوة فيها هي أخوة العقيدة، لا تفرِّق بين الشعوب والقبائل، والأبيض والأسود والأصفر، ولا الغالب ولا المغلوب، ولا الأراضي والأوطان، بل تدعو إلى أخوَّة حدودها البشريَّة سبيل الله، والدعوة إليه بالحكمة والموعظة الحسنة، حتى في حال النزاع مع المعتدين وردِّهم عن

عدوانهم بالحرب، فإن فكرة الأخوة البشرية أيضًا نبراس يهتدي به المؤمنون في ظلام الحرب، فهم لا يحاربون للفتح، ولا للسلب، ولا للقهر وإذلال الناس، وإنما لحرية العقيدة، ﴿لَآ إِكۡرَاهَ فِي ٱلدِّينِۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشۡدُ مِنَ ٱلۡغَيِّۚ﴾ [البقرة:٢٥٦]، ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلۡمِ فَٱجۡنَحۡ لَهَا وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ﴾ [الأنفال:٦١]. حتى في حالة الحرب مع الوثنيين يعتبر الإسلام الأخوة البشرية أصلًا في النزاع، فالمؤمن الذي يعتقد أن الوثنية هي أسوأ ما يصاب به الإنسان في روحه وعقله ومصيره، إنما يريد للوثني أن ينجو مما هو فيه، وما هو معرَّض له من غضب الله، فإذا قسا عليه ليردَّه عن كفره، فإنما يريد بذلك رحمته وهو معترف بأخوَّته كما قيل[1]:

فقسا ليزدَجِر ومَن يك حازمًا
فليَقْسُ أحيانًا على مَن يرحم

وهذا الوثني الذي يدفع المؤمن عدوانه متى كان معتديًا، يستحق من المؤمن جميع الحقوق بمجرَّد تسليمه لله، ويصبح مساويًا له تمام المساواة، فهو إذًا: لا ينازعه لنكران أخوَّته، أو لعدم الرغبة في رحمته، بل لتمام هذه الرحمة أو هذه الأخوة.

---

(١) ينسب لأبي تمام، انظر الزهرة لابن داود الظاهري ١٩٩، نهاية الأرب للنويري ٧/ ٢٩١.

فنستطيع إذًا أن نقول: إن الرحمة والإخاء أصلان من أصول الدعوة الإسلامية، مقصودان لذاتهما ولأثرهما، حتى في أشدِّ حالات النزاع والخلاف والحرب، وإن الأخوة العامة هي مقصود أسمى للرسالة المحمدية، لا كما يدعي بعض الأجانب، ولا كما يظن الحمقَى من أن الإسلام دين حرب وقسوة وقهر. وعليه فالإحسان أو العمل الصالح، أن نسعى إلى الإخاء العام، وأن تكون الرحمة شعارنا وهدْيَنا في كل زمان ومكان.

وقد كان للدعوة المحمدية أثرها العظيم في هذا، بل كان أكبر معجزاتها ما أحدثته من أخوة بين طوائف من البشر كانت أشد الأقوام تدابرًا وتناكرًا وشِقاقًا، ولو قلَّبنا صفحاتِ التاريخ قبل الإسلام، ونظرنا فيها إلى حال الأمم التي دانت بالدعوة المحمدية فيما بعد، ما بين جبال الهيمالايا(١) وجبال البرانس(٢)، في طول الدنيا شرقًا وغربًا، لأدركنا الأثر الهائل الذي أحدثته الدعوة إلى الأخوة والتراحم في نفوس مئات الملايين من البشر على مر هذه القرون. ولا تزال هذه الأخوة التي دعا إليها محمد، أحسن ما بقي في نفوس مسلمي اليوم، رغم ما هي عليه من بعد عن روح الإسلام، فهي

---

(١) سلسلة جبلية تقع في آسيا، وتفصل سهول شبه القارة الهندية عن هضبة التِّبت، وتضم على القمم الأعلى في العالم.

(٢) سلسلة جبلية تقع جنوب غرب أوروبا.

متجلِّية فيهم لمن يرحلون في أطراف الأرض الإسلامية كما تجلَّت لابن بَطُّوطة[١] قبل سبعة قرون، ولمن قبله ومن بعده.

إن الأخوة التي دعا إليها سيدنا محمد، وأقامها الإسلام في النفوس كان أعزَّ أيامها أيام العزِّ السابق، وقد حملها العثمانيون إلى شرق أوروبا كما حملها العرب من قبل إلى غرب أوروبا، ومجاهل أفريقيا وآسيا، فكان الناس تحت رايتهم سواسية كأسنان المُشْط، لا فضل لعربي على أعجمي إلا بالتقوى والعمل الصالح، ولا سلطان لمسلم على غير مسلم إلا بما تقتضيه حدود عدالة الله.

وقد كان أهل الملل الأخرى في الدول الإسلامية أهل ذمة، لهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم، فلهم ما يقتضيه العدل والرحمة، وعليهم ما يقتضيه الإخاء. والآن وهذا العالَم المضطرب، يأكل قويُّه ضعيفَه، والناس في أنكر صور القسوة يتقاذفون بالهول ليجنوا مغانم وأسلابًا لا شك أنهم في أشد الحاجة إلى التذكير بدعوة الإخاء والرحمة، وإلى ظهور هذه الدعوة قوية عزيزة، كما كانت. ولله الأمر من قبل ومن بعد[٢].

(١) هو محمد بن عبد الله بن محمد الطنجي، رحالة مؤرخ؛ رحل إلى بلاد كثيرة من العالم الإسلامي، وسجل مشاهداته في كتاب (رحلة) أسماه «تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار». انظر الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة، لابن حجر العسقلاني ٣/ ٤٨٠.

(٢) من: الرسالة الخالدة، لعبد الرحمن عزام، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة التعريف بالإسلام، الكتاب السادس عشر. ١٣٨٤هـ - ١٩٦٤م/ ٣٩-٤٤.

حقًّا لقد انشغل الناس الآن عن هذه القاعدة الذهبية التي أرسى عليها النبي، المجتمع الإسلامي، وبنى بواسطتها أقوى حضارة عرفها التاريخ، وتناسى المسلمون فضل هذه الأخوة وما تستند عليه من مُثل وتقتضيه مِن مَطالبَ، فأصابهم ما أصابهم من ضَياع، وطمِع فيهم عدوُّهم، وتكالَب عليهم الغدر والكيد من كل جانب، وأصبح حالهم في كثير من المناطق أضيع من الأيتام على مأدبة اللئام، وها هم المسلمون الآن في شتى بقاع العالم تلعب بهم أيدي الغدر، وتفتك بهم مخالب الطمع.

❊ ❊ ❊

المحتويات